الشرح الأيين على رائية أبي مدين

تأليف

سماحة الشيخ العلامة
محمد عامود

دار أبي حنيفة

Scanned by CamScanner

الشرح الأبين
على
رائية أبي مدين

Scanned by CamScanner

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

دار أبي حنيفة
للنشر والتوزيع
اليمن - الحديدة
يطلب من
e-mail: daroabihanifah@gmail.com
السيد عمار / ٧٣٤٥٩٧٨٩٦
لؤي الحنفي / ٧٧٧ ٠٢٤٣ ٢٠

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

كلمة الدار عن الكتاب

هذا الشرح يعتبر مزيجاً بين الحديث والفقه والتصوف الحقيقي وقد شرفت الدار بطبعه لأول مرة مساهمة منها في نشر الكتب الهادفة القائمة على أساس متين على طريقة أهل السنة والجماعة وإظهار الصورة المشرقة للتصوف الإسلامي ثالث أركان الدين، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

دار أبي حنيفة للنشر والتوزيع

Scanned by CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنعم الوهاب والصلاة والسلام على صفوة الأحباب سيدنا ومولانا محمد وآله والأصحاب أما بعد فإن من المقررات المسلمة عند أرباب الأذواق والمعرفة أن منظومات أهل الكمال وقصائد أهل المعرفة كلها أذواق ومواجيد تحتوي أنواراً توحيدية وأحوالاً نبوية وآدابا شرعية فهي تترجم أحوال ناظميها وصفاء قلوبهم وصدق محبتهم لربهم وعظم معرفتهم بحقائق الشريعة وآداب الطريقة لذلك نالت عناية العلماء والصالحين فهي تنشد في المجالس لتحريك القلوب وتنوير العقول ولا أحد ينكر ما للسماع بشروطه من الفائدة

إن كنت تنكر آن للأصو ات فائدة ونفعا
فانظر إلى الإبل اللوات هن آغلظ منك طبعا
تصغي إلى حدو الحداة فتقطع الفلوات قطعا

كما اعتنى بها العلماء شرحاً ودرساً وكانت القصيدة الرائية التي أولها ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا لأبي مدين التلمساني من أجمل القصائد التي عنيت بتفسير آداب الطريقة ودلت على عناوين وعلامات أهل الحقيقة وقد خدمها العلماء بالشرح والتعليق والتخميس فأحببت خدمتها رجاء بركتها وبركة ناظمها فكتبت عليها هذا الشرح الأبين والله أسأل أن يكتب لشرحي هذا القبول وينفع به إنه أعظم مأ مول وأكرم مسئول وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

Scanned by CamScanner

ترجمة الناظم
أبو مدين التلمساني

هو أحد أقطاب هذه الأمة وأعيان علمائها ترجمه في النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب لأبي عبد الله محمد التلمساني وترجمه ابن العماد في شذرات الذهب وترجمه ابن الملقن في طبقات الأولياء وغيرهم في غيرها وحاصل ما جاء فيها أن اسمه شعيب بن حسين الأندلسي الزاهد ويكنى بأبي مدين شيخ المغرب كان فرداً من أفراد الرجال وصدراً من صدور الأولياء والأبدال جمع الله له علم الشريعة والحقيقة وصفه الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي بسلطان الوارثين ا.هـ.

نصبه الله عز وجل للدلالة عليه فتخرج على يديه ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات ومن درر كلامه من علامات صدق المريد في بدايته فراره عن الخلق ومن علامة صدق فراره عنهم وجوده للحق ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه للخلق ا.هـ، أي مرشداً ومربياً وهاديا يدلهم على الصراط المستقيم ويأخذ بأيديهم إلى المنهج القويم ومن كلامه من لم يأخذ الآداب من المتأدبين أفسد من يتبعه، كان آخر كلامه في الدنيا الله الحي ثم فاضت نفسه وكان ذلك سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بتلمسان وقبره مشهور بها يزار ويتبرك به.

Scanned by CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

يبتدئ بها العلماء اقتداء بكتاب الله عز وجل واتباعاً لهدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي تواتر عنه تواتراً معنوياً افتتاحه الكتب والرسائل بالبسملة وقلوب العارفين تسكن إلى بسم الله الرحمن الرحيم لأن في بسم الله هيبته وفي اسمه الرحمن عونه ونصرته وفي الرحيم محبته ومودته.

Scanned by CamScanner

قال الناظم رحمه الله:

١- ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا

شرح البيت رقم (١)

من المسائل المسلمة والحقائق المقررة أنه لا يمكن أن يعبر عن الأحوال إلا مكابدها ولا المحآب إلا ذائقها ولا المحاسن وبدائع سحر الجمال إلا مشاهدها ولا عن الحقيقة إلا عارفها وواصفها وقيل في هذا المعنى:

لا يعرف الشوق إلاّ من يكابده ولا الصبابة إلا منْ يعانيها

والناظم رحمه الله يحكي هنا ويبين للباحثين عن حقيقة لذة العيش أين يجدونه يجدون ذلك في صحبة أهل الله فلا نعيم يعادل نعيم صحبتهم بين الناظم هذه الحقيقة وهو من الذائقين الكُمَّل لها فقد وجد الناظم لذة العيش في صحبته للصوفية، معهم طابت حياته وزكت نفسه وصفت سريرته واستقام سلوكه واستنار فؤاده وانجلت غشاوة الران عن قلبه بهم ارتقى ومعهم أفلح فكأنه بعد ما صحبهم تذكر حاله قبل صحبتهم واستشعر حاله بعد صحبتهم فرأى الفارق الكبير بين تلك العيشتين والبون الشاسع بين تلك الحالتين وأيقن أنه وجد نفسه بعد صحبتهم وأشرقت أنوار هدايته في صحبتهم فقال حاكياً لهذه الحقيقة مخبراً عنها من يجهلها مستعملاً أسلوب الحصر (ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا)

ما: نافية

لذة: مبتدأ وهي مضاف والعيش مضاف إليه

إلا: أداة حصر

صحبة: خبر وهو مضاف والفقراء مضاف إليه

واللذة طيب طعم الشيء واللذة إدراك الملائم من حيث أنه ملائم والعيش اسم مصدر، عاش والعيش معناه الحياة ولذة العيش لذة الحياة ولذة الحياة الشعور بالارتياح والاطمئنان.

Scanned by CamScanner

والصحبة: الملازمة والمرافقة والمعاشرة والصحبة لغة جمع صاحب وفي لسان العرب صحبه يصحبه صُحبة بالضم وصحابة بالفتح وصاحبه عاشره وفي المعجم الوسيط المصاحبة المرافقة صحبك الله حفظك ورافقتك عنايته، **وفي تاج العروس**: الصاحب المعاشر هذا مطلق الصحبة لغة **أما في الاصطلاح** فإذا أطلقوا الصحبة فالمراد بها صحبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، **والصحبة في عرف الناس** الرفقة والصداقة **والصحبة في اصطلاح أهل السلوك تعني** أن يلازم شخصاً آخر بالموافقة لتتحقق من هذه الملازمة غاية منشودة هذه الغاية هي التحقق بمضامين الإسلام والإيمان والإحسان أو ما اصطلح عليه بالمعرفة بالله أو الدخول على الله أو الوصول.

فالصحبة عند سادتنا الصوفية صِلةٌ رابطة بين الشيخ والمريد الصاحِبُ والمُصاحَبُ فالتصوف يعتمد الصحبة منهاجاً للتحقق بمضامين الدين لذلك قالوا (ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح).

والفقرا: المراد بهم هنا الصوفية وكان أهل الشام يسّمون الصوفية الفقرا كما في المدارج لابن القيم رحمه الله سمّو بذلك لأن الله عز وجل سماهم بذلك في كتابه حيث قال الله عز وجل ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (الحشر).

ومن هنا عبرّ السادة الصوفية عن الشيوخ العارفين بالفقرا ويقصدون بذلك أنهم فقراء إلى الله أغنياء عن غيره وقد استعمل هذا الاصطلاح الناظم فقال (ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا) أي صحبة الأشياخ العارفين بالله والشيوخ العارفون العلماء الربانيون هم نوابٌ عن حضرته صلى الله عليه وآله وسلم في دعوة الخلق إلى الحق لذلك كان الأخذ عنهم غنيمة والاجتماع بهم والاستماع إليهم رحمة والصحبة لهم إكسير القلوب بيقين.

وإن أردت فهم هذا المعنى تأمل في هذا الحديث العظيم الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً

Scanned by CamScanner

يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا قال ربهم عز وجل وهو أعلم بهم ما يقول عبادي قال تقول يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجّدونك قال فيقول هل رأوني؟ قال فيقولون لا والله ما رأوك قال فيقول كيف لو رأوني قال يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وتحميداً وأكثر لك تسبيحاً قال يقول فما يسألوني؟ قال يسألونك الجنة قال يقول وهل رأوها؟ قال يقولون لا والله يا رب ما رأوها قال فكيف لو أنهم رأوها قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة قال فمم يتعوذون؟ قال يقولون من النار قال يقول وهل رأوها ؟ قال فيقولون لا والله يا رب ما رأوها قال يقول فكيف لو رأوها قال يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة قال فيقول فأشهدكم أني قد غفرت لهم قال يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة قال هم الجلساء لا يشقى جليسهم.

قال في الفتح وفي رواية: هم القوم وفي اللام أي ال التعريف الداخلة على كلمة قوم إشعار بالكمال أي هم القوم كل القوم ا.هـ.

وقوله لا يشقى جليسهم: فيه إشعار ببيان علة عدم الشقاوة وهي مجرد المجالسة لهؤلاء القوم الذين هم كل القوم وجاءت رواية أخرى تفيد عِلة أخرى ولفظها لا يشقى بهم جليسهم أي بسببهم.

وفي رواية للترمذي لا يشقى لهم جليس أي من أجلهم وإكراماً لهم فانظر إلى صحبتهم ما أعظمها فإذا كانت مجالستهم عن غير قصد وإرادة تُنتج هذا الخير العظيم وزيادة في تعظيمه أن الله عز وجل أشهد ملائكته عليه فكيف بما ينتج عن مصاحبتهم وملازمتهم وتعلق القلب بهم لا ريب هم القوم لا يشقى لهم جليس ولا يخيب لهم محب ولا يضيع بهم مغرم، **قال الحكماء:** من جالس خيّراً أصابته بركته فجليس أولياء الله لا يشقى وإن كان كلباً ككلب أصحاب الكهف حيث قال عز وجل ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ (الكهف: ١٨)

نص الصاوي رحمه الله في حاشيته على الجلالين عند هذه الآية أن هذا الحيوان من جملة الحيوانات التي تدخل الجنة وذلك بفضل الصحبة فمجالسة

Scanned by CamScanner

الصالحين هي الإكسير للقلوب بيقين لكن لا يشترط ظهور الأثر حالاً وسيظهر ببركة صحبتهم ولو بعد حين وحسبك بصحبتهم إضافة التشريف، ولهذا أوصى العارفون بالله كل من أراد سلوك طريق الحق الموصل إلى معرفة الله ورضاه بالصحبة ويدلك على أهمية الصحبة من كتاب الله عز وجل آيات كثيرة منها قوله عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (التوبة)والصادقون هم الصفوة من المؤمنين الذين عناهم الله بقوله ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾(الأحزاب:٢٣).

قال العارفون إن الكينونة تكون ظاهراً بمجالستهم حتى تنطبع في المؤمن صفاتهم وباطناً برابطة الروح حيث تسقي الأرواح بعضها بعضاً كما يسقي الماء المتدفق من الأرض العالية الزروع القائمة في الأرض الواطئة ورزق الظاهر بحركات الأجسام ورزق الباطن بحركات القلوب ا.هـ.

وقال عز وجل ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الكهف) والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من قبيل تعليم أمته وإرشادها.

قال سبحانه وتعالى ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ (لقمان: ١٥) أناب رجع وقال عز وجل ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الفرقان) وقال عز وجل ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الزخرف)

وقال عز وجل ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (الفرقان) وقال سبحانه وتعالى حاكياً على لسان سيدنا موسى عليه السلام حين التقى بالخضر عليه السلام بعد عزم صادق وعناء طويل وسفر شاق ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ (الكهف)

Scanned by CamScanner

قال بعض العلماء إذا كان سيدنا موسى عليه السلام قد سعى سعياً حثيثاً للاجتماع بالخضر عليه السلام طلباً للمزيد من فضل الله عز وجل بدليل قوله تعالى ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (الكهف) فالأولى بنا نحن عوام المسلمين أن نطلب الطريق إلى الله تعالى على يد العارفين المتحققين لا على يد المدعين المتصنعين فإن فاقد الشيء لا يعطيه ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز وقد علمنا سيدنا موسى عليه السلام في قصة التقائه مع الخضر عليه السلام آداباً عالية منها أن الالتقاء بالصالحين من عباد الله غنيمة لا يجوز أن يزهد فيها مؤمن يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه وأن الاسترشاد بهم واجب وأن طاعتهم واجبة كذلك وأنه يجب ترك جدالهم فيما لا علم لنا بأسراره وكشفت القصة وجوب الصبر على صحبتهم إلى نهاية الشوط تحصيلاً لما عندهم من الدقائق والحقائق كما لا يجوز أن يتذلل تلميذ بعلمه على شيخه أو أستاذه فللأبرار أسرار لا يعلمها إلا الله تعالى.

ويدلك على أهمية الصحبة من السنة النبوية أحاديث كثيرة منها:

١- **قوله صلى الله عليه وسلم** (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك (يعطيك) وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

٢- **وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:** قيل يا رسول الله أي جلسائنا خير قال من ذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم مَنْطِقه وذكَركم في الآخرة عمله رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد.

٣- **عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح.

٤- **عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم

Scanned by CamScanner

القيامة بمكانهم من الله عز وجل قالوا يا رسول فخبرنا من هم؟ قال هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فو الله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور ولا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ هذه الآية ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (يونس) رواه أبو داود.

٥- **عن أبي ذر رضي الله عنه قال:** قلت يا رسول الله الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم قال أنت يا أبا ذر مع من أحببت رواه أبو داود.

٦- **عن حنظلة رضي الله عنه قال:** لقيني أبو بكر رضي الله عنه فقال كيف أنت يا حنظلة قلت نافق حنظلة قال سبحان الله ما تقول؟! قلت نكون عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه فو الله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ذاك؟ قلت يا رسول نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي العين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والضيعات نسينا كثيراً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات) رواه مسلم في صحيحه ومعنى عافسنا عالجنا ولا عبنا والضيعات جمع ضيعة وهو معاش الرجل من مال أو حرفة أو صناعة.

إن هذه الأحاديث وغيرها كثيرة تدل على أهمية الصحبة وأثرها في النفوس وأنها السبيل العملي للإصلاح والتربية وحديث حنظلة يظهر بوضوح تام كيف كانت مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشع في القلوب أنوار اليقين وتذكي في النفوس جذوة الإيمان وترتفع بالأرواح إلى مستوى ملائكي أقدس وتطهر القلوب من أدران المادة وتسموا بالإيمان إلى مستوى المراقبة والشهود وتأمل قول

Scanned by CamScanner

الله عز وجل في وصف نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (البقرة: ١٢٩) وما نال الصحابة ما نالوه من الشرف وعلو الرتبة وسمو المكانة إلا ببركة صحبة المقام الرفيع الحبيب الشفيع صلى الله عليه وسلم.

ولقد ذاق الصحابة طعم الصحبة تأمل قول الصديق في الهجرة إذاً هي الصحبة يا رسول الله كم كانت فرحته، الدنيا كلها لا تساوي شيئاً عند الصديق إذا قورنت بهذه المزية إنها الصحبة يا لها من كلمة يسري سرها في سويداء أهل القلوب وتأمل قول بلال وهو في سكرات الموت يطرب ويقول غداً نلقى الأحبة لذلك لم يتسم أصحاب رسول الله بوصف أعظم من الصحبة وكفى.

لذلك قرر أهل العلم أن الصحبة إذا أطلقت انصرفت إليهم وهكذا مجالسة وُرّاث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتهم تزكي النفوس وتزيد الإيمان وتوقظ القلوب وتذكر بالله عز وجل لذلك اهتم السادة الصوفية رضي الله عنهم بالصحبة وكيف لا ونحن نقرأ في الصلاة في الفاتحة قول الحق ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ (الفاتحة) ولا نقتصر عليه بل نزيد ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٧) فنحن نطلب معية المنعم عليهم وهم المذكورون في قوله تعالى ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ (النساء) فهم النعيم السابق للنعيم اللاحق لا تطيب الدنيا إلا بهم ومعهم وتحت نظراتهم ولا تحلو الجنات إلا بحضورهم وتحت نظرات سرورهم.

فالصحبة ركن الطريق ولا بد منها للسالك وهي مع ذلك كله وسيلة للوصول إلى الله فلا ينبغي أن تشغلك عن الله قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير.

قال الجنيد رحمه الله: دخلت على السري السقطي وهو خال الجنيد وهو يجود بنفسه أي يحتضر فجلست وبكيت فسقطت دموعي على خده ففتح عينيه ونظر إليَّ فقلت أوصني قال لا تصحب الأشرار ولا تشتغل عن الله بمخالطة الأخيار فنبهه إلى أن صحبة الأخيار للدلالة على الله عز وجل فإذا حصلت لك فلا تنس فضلهم ولا تنكر حقهم ومع ذلك لا تشتغل بهم عن الله عز وجل وانظر إلى

Scanned by CamScanner

أثر الصحبة في نفوس القوم فإنه آثرها على أي وصية سواها وهو في هذا الحال ينتظر أن يلحق بالرفيق الأعلى.

قال ابن عطاء الله رحمه الله: ليس شيخك من سمعت منه وإنما شيخك من أخذت عنه وليس شيخك من واجهتك عبارته وإنما شيخك الذي سرت فيك إشارته وليس شيخك من دعاك إلى الباب وإنما شيخك الذي رفع بينك وبينه الحجاب وليس شيخك من واجهك مقاله إنما شيخك الذي نهض بك حاله شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك انهض إلى الله فنهضت إليه وسار بك حتى وصلت إليه وما زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه فزج بك في نور الحضرة وقال ها أنت وربك ا.هـ لطائف المنن لا بن عطاء الله.

وما أحوجنا اليوم إلى هذه الصحبة فزاد هذا الزمان صحبة إخوان على الخير أعوان إن نسي ذكروه وإن ذكر أعانوه وإن غفل نبهوه وإن أناخ عليه الدهر أخذوا بيده فأنقذوه ولله در القائل:

ولا عيش إلا مع رجال قلوبهم تحن إلى التقوى وترتاح للذكر

فلا يطيب العيش إلا بصحبتهم وفي معيتهم ولذلك قال الناظم ما لِذة العيش إلا صحبة الفقرا الذين استغنوا بالله عن كل شيء فأغناهم الله عن كل ما سواه.

قال الذرقاوي رحمه الله: ما عرفنا من النحو إلا إعراب قوله تعالى ﴿ **إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ** ﴾ (النور:٣٢) إن حرف شرط ويغنهم جواب الشرط والمقصود بالغنى الغنى الأكبر فيكون خطابه للمتوجهين على سبيل الإشارة ا.هـ المنح القدوسية.

ثم وصف الناظم أحبابه الذين طاب عيشه معهم بالسلاطين والسادات والأمرا لأنهم تخلصوا من رق الأغيار واصطبغوا بالعبودية الخالصة لله العزيز الغفار ومن كان كذلك فهو السلطان على الحقيقة والأمير عند أهل البصيرة وإنما وصفهم بهذه الأوصاف لأنه رآهم بفؤاد الكمال وببصيرة الجمال فترجم محاسن

Scanned by CamScanner

خصالهم بلسان المحبة وصدق المودّة فهم السادات المكرمون لأن الله الكريم أدخلهم في حصن حفظه وجنة كرمه وأحياهم بشراب محبته وهم السلاطين والأمراء لأنهم من أهل التصريف وأهل التصريف هم أهل الفضل الإلهي الذين يكرمهم الله عز وجل بتحقيق مرادهم الظاهر وهو مراد الله فيما يطلبونه من الكونيات سواء كان الطلب بالقول أو الفعل أو الهمة

فمعنى قولنا فلان من أهل التصريف أنه من أهل الوجاهة عند الله والقبول لديه وأنه من أهل استجابة الدعاء سواءٌ كان نطقاً باللسان أو توجهاً بالقلب أو تحركاً للإرادة وكنه الهمة في حدود ما جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري في صحيحه (ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه) ومن كان هذا حاله لا شك أنَّ العيش معه يطيب والروح إلى لُقياهم تشتاق **قال أبو مدين رحمه الله:** أحب لقاء الأحباب في كل ساعة لأن لقاء الأحباب فيه المنافع

أيا قرة العيون تا الله إني على عهدكم باقٍ وفي الوصل طامع
لقد نبتت في القلب منكم محبة كما نبتت في الراحتين الأصابع
حرام على قلبي محبة غيركم كما حَرُمَتْ على موسى تلك المراضع

فائدة:

تفاوتت الأذواق في لذة العيش فبينما يراها الناظم في صحبة الفقرا يرى غيره غير ذلك فقد رأى بعضهم لذة العيش في مرحلة الشباب وعبر عن ذلك بقوله:

ولذة عيش المرء قبل مشيبه وقد فنيت نفس تولى شبابها

ورأى البعض لذة العيش بالجنون فيمن يهوى فقال:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم ما لذة العيش إلا للمجانين

Scanned by CamScanner

ويرى الإمام الشافعي رضي الله عنه لذة العيش في الكد والجد والاجتهاد وفي ذلك يقول رحمه الله:

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

وقال حمزة بن ربيعة: ما رأيت لذة العيش إلا في خصلتين أكل الموز بالعسل في ظل صخرة بيت المقدس ولأمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني رسالة جليلة سماها لذة العيش في طرق حديث الأئمة من قريش.

فائدة:

قال سيدي ابن عربي مخمساً هذا البيت:

يا طالباً من لذاذات الدنا وطرا إذا أردت جميع الخير فيك يُرىٰ
المستشار أمين فاسمع الخبرا ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا
هم السلاطين والسادات والأمرا

واتفق لي تخميس هذا البيت بقولي:

يا راغباً أن يعيش في الدنا مطهرا إذا أردت أن تفوح مسكاً وعنبرا
في صحبة القوم سرّ سرىٰ ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا
هم السلاطين والسادات والأمرا

Scanned by CamScanner

٢- فاصحبهم وتأدب فى مجالسهم وخل حظك مهما قدموك ورا

شرح البيت رقم (٢)

فاصحبهم أمر بصحبة الفقرا وصحبتهم فرض عين نقل العلامة ابن عجيبة في شرح الحكم عن حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه قال الدخول مع الصوفية فرض عين إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ا.هـ.

فصحبة هؤلاء الوارثين لسيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم ترياق مجرب لإصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق وغرس العقيدة ورسوخ الإيمان لأن هذه أمور لا تنال بقراءة الكتب ومطالعة الكراريس إنما هي خصال عملية وجدانية تقتبس بالاقتداء وتنالُ بالاستقاء القلبي والتأثر الروحي هذا الوارث المحمدي يُعرِّفُك كيف تدخل إلى الله عز وجل وكيف تتعامل معه وتعبده وتتقرب إليه فهل رأيت خادماً أول ما يستقدم يصلح للخدمة؟ بل يعطى لمن يربيه ويعلمه الأدب فإن صلح وعرف الأدب قدّمه للملك ومن أخذه الملك أعزّه ومن لا يصلح للخدمة بقي للرعية وحُرِمَ من المعية كذلك الأولياء والمربون يصحبهم المريدون حتى يرتفعوا بهم إلى الحضرة كالرجل العوّام إذا أراد أن يعلم الصبي العَوْمَ يحاذيه ويسير بجواره حتى يتعلم ويعرف العوم وحده فإذا صلح للعوم واطمأن إليه ووثق بمهارته زجّهُ في اللجة وتركه، فلا يصلح للقدوة إلا من صحب من يقتدى بهم وتأدب بأدبهم.

قال أبو علي الثقفي: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ مؤدب ناصح ومن لم يأخذ أدبه عن آمر له وناهٍ يريه عيوب أعماله ورعونة نفسه لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات ا.هـ طبقات الصوفية للسلمي.

وقال أبو مدين رحمه الله: من لم يأخذ الآداب من المتأدبين أفسد من يتبعه.

Scanned by CamScanner

وقال العلامة أحمد زروق رحمه الله: في قواعد التصوف أخذ العلم والعمل عن المشايخ أتم من أخذه دونهم قال تعالى ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ (العنكبوت: ٤٩) وقال تعالى ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ (لقمان:١٥) فلزمت المشيخة سيما والصحابة أخذو عنه عليه الصلاة والسلام وقد أخذ هو عن جبريل عليه السلام واتبع إشارته في أن يكون عبداً نبيا، وأخذ التابعون عن الصحابة فكان لكلٍ أتباعٌ يختصون به كابن سيرين وابن المسيب والأعرج لأبي هريرة رضي الله عنه وطاووس ووهب ومجاهد لابن عباس إلى غير ذلك، وعلقمة والأسود لابن مسعود فالصحبة لا بد منها **قال سيدي علي الخواص:**

لا تسلكن طريقاً لست تعرفها بلا دليل فتهوي في مهاويها

لأن الدليل والمرشد يوصل السالك إلى ساحل الأمان ويجنبه مزالق الأقدام ومخاطر الطريق وذلك لأن هذا الدليل المرشد قد سبق له سلوك الطريق على يد دليل عارف بخفايا السير مطلع على مجاهله ومآمنه فلم يزل مرافقاً له حتى أوصله إلى الغاية المنشودة ثم أذن له بإرشاد غيره وإلى هذا أشار ابن البنا في منظومته

وإنما القوم مسافرونا لحضرة الحق وظاعنونا
فافتقروا فيه إلى دليل ذي بصر بالسَّير والمقيل
قد سلك الطريق ثم عاد ليخبر القوم بما استفاد

قال العارف بالله السيد محمد الهاشمي رحمه الله: فاسلك يا أخي على يد شيخ عارف بالله صادق ناصح له علم صحيح وذوق صريح وهمة عالية وحالة مَرْضية سلك الطريق على يد المرشدين وأخذ أدبه عن المتأدبين عارف بالمسالك ليقيك في طريقك المهلك ويدلك على الجمع على الله ويعلمك الفرار من سوى الله ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله ويوقفك على إساءة نفسك ويعرّفك

Scanned by CamScanner

بإحسان الله إليك فإذا عرفته أحببته وإذا أحببته جاهدت فيه وإذا جاهدت فيه هداك لطريقه واصطفاك لحضرته قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (العنكبوت) فصحبة الشيخ والاقتداء به واجب والأصل فيه قوله تعالى ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ (لقمان: ١٥) وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (التوبة) ا.هـ.

وتأدب في مجالسهم أي الزم الأدب في مجالسهم علمت أيها المحب الصادق أن الصحبة مطلوبة لذلك أتبع الله عز وجل بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بذكر الصحبة في قوله تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (الفتح: ٢٩) فالصحبة أولى صفات المؤمنين قف مع كلمة معه وتأملها جيداً تجد أنهم بهذه المعية والصحبة كانوا رجالاً وقف عند رحماء بينهم وتأملها جيداً تجد أنهم بذلك التراحم كانوا جماعة فلا غرو أن جعلنا الصحبة والجماعة أولى خصال أهل الإيمان ومن هنا جاء الاهتمام بالصحبة.

ولذا قال السادة الصوفية: ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح فالصحبة باب الفتح لكنها مقرونة بشروط وآداب علمها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ففازوا بشرف الصحبة وحازوا أنوارها وقد تعلموا من القرآن طرفاً من تلك الآداب قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (النور: ٦٢) وقال عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (الحجرات).

فأدرك الصحابة ما يجب لتلك الصحبة من الآداب الجميلة وأخلاق الفضيلة فأحسنوا الصحبة **روى البخاري في صحيحه قول ابن عباس لعمر رضي**

Scanned by CamScanner

الله: عنه حين طُعن لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنت صحبته ثم فارقته وهو عنك راضٍ ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته ثم فارقته وهو عنك راضٍ ثم صحبت صَحَبَتَهُم بفتحتين فأحسنت صحبتهم ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون قال أي عمر أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ورضاه فإنما ذاك منٌّ من الله تعالى مَنَّ به عليَّ وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فإنما ذاك مَنٌّ من الله جل ذكره به عليَّ ..... الحديث تأمل أحسنت صحبته وتأمل فارقته وهو عنك راضٍ.

وروى البخاري في صحيحه قول عثمان رضي الله عنه: أما بعد فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق فكنتُ ممن استجاب لله ولرسوله وآمنت بما بعث به وهاجرت الهجرتين ما قلت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعته فو الله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله ثم أبوبكر مثله ثم عمر مثله ثم استخلفت؟ أفليس لي من الحق مثل الذي لهم ..... الحديث تأمل قوله رضي الله عنه فو الله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله ثم أبو بكر مثله ثم عمر مثله وتأمل قول المعلم صلى الله عليه وسلم (أدبني ربي فأحسن تأديبي) رواه ابن السمعاني في أدب الإملاء والعسكري في الأمثال والسرقسطي في الدلائل وأبو نعيم في تاريخ أصبهان، ومعناه صحيح وسنده ضعيف وإن صححه أبو الفضل بن ناصر.

فالصحبة قرينة الأدب والتصوف كله أدب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول.

وقال السري رحمه الله: حسن الأدب ترجمان العقل وقال إبراهيم بن شيبان رحمه الله من ترك حرمة المشايخ ابتلي بالدعاوى الكاذبة وافتضح بها، وقال الصوفية من لم ترضه أوامر المشايخ وتأديبهم فإنه لا يتأدب بكتاب ولا سنة، ولما كانت الصحبة قرينة الأدب كان لزاماً على المريد أن يعرف تلك الآداب وأن يعرف شروط حقائق الانتساب.

Scanned by CamScanner

وقد ذكر الناظم رحمه الله طرفاً من تلك الشروط والآداب فقال: (وخل حظك مهما قدموك ورا) فأول شروط آداب الصحبة ترك الحظوظ في طلب أجرة الخدمة وذلك بترك حظوظ النفس في صحبتهم وراء مهما قدموك لأن من تقدم بحظ فما وفىّ حقوق الصحبة ولا اعتنىٰ بموجبات الخدمة لما في سجية الإخوان من شهود الكمال في غيرهم وشهود النقص في أنفسهم فالناظم يحذرك أيها المريد من الإخلال بآداب القوم والتسور علىٰ محرابهم والإخلال بمراعاة علو مقامهم فلا تتقدم عليهم مهما قدموك فإنهم ما قدموك إلا لحسن ظنهم فيك وعظيم محبتهم لك لأن ميزان المحبة عندهم قوله صلىٰ الله عليه وسلم (ما تحاب اثنان في الله إلا كان أحبهما إلىٰ الله أشدهما حباً لصاحبه) رواه الحاكم وصححه لذلك كانوا أهل الخدمة علىٰ ذلك درجوا.

وقد كان صلىٰ الله عليه وسلم يخدم أصحابه بنفسه ويحرص علىٰ راحتهم ويدعو لهم ويتفقد فقيرهم ويعود مريضهم ويواسي محزونهم وتعلم القوم منه صلىٰ الله عليه وسلم أن سيد القوم خادمهم رواه ابن ماجه والترمذي.

فلولا علو مقامهم وسمو مكانتهم وكمال آدابهم وطيب نفوسهم وسماحة أرواحهم ما قدموك ولولا شهودهم التقصير في أنفسهم والكمال في غيرهم ما أكرموك بالتقدم عليهم فإن ذقت شرابهم وعرفت حالهم فاجعل حظك مهما قدموك ورا وانظر إلىٰ القوم علىٰ أساس طريقهم من شهود التقصير في نفسك والكمال في غيرك فلا تنظر إلىٰ القوم إلا أنك أدناهم وأفقرهم وأجهلهم وأعصاهم فلا ترىٰ لنفسك عليهم حقا ولا لخدمتك لهم فضلاً بل احمد الله عز وجل أنهم قبلوك لخدمتهم وأذنوا لك بصحبتهم فإنَّ قبولهم لك مِنَّة أيّ مِنَّة ووصلة أيّ وصلة ولا زلت بالخدمة لهم ترقىٰ وبأنوار صحبتهم القلب يصفىٰ وببركة معيتهم أحوالك تسمو والود يعلو فتصير الخدمة غراماً والصحبة محبة وهياما فيعظم الأدب ويزداد التواضع ويحل بالفؤاد النور الساطع .

Scanned by CamScanner

فائدة:

خمس سيدي ابن عربي رحمه الله هذا البيت بقوله:

قوم رضوا بيسير من ملابسهم والقوت لا تخطر الدنيا بهاجسهم

صدورهم خاليات من وساوسهم فاصحبهم وتأدب في مجالسهم

وخل حظك مهما قدموك ورا

واتفق لي في هذا المعنى:

صوفية نما الحب في سرائرهم يا طيب تربة شَرُفت بمداعسهم

قوم ترىٰ الطّهر في محافلهم فاصحبهم وتأدب في مجالسهم

وخل حظك مهما قدموك ورا

Scanned by CamScanner

٣- واستغنم الوقت واحضر دائماً معهم واعلم بأن الرضا يختص من حضرا

شرح البيت رقم (٣)

واستغنم الوقت أمر باغتنام الوقت واغتنام الوقت استثماره فيما يعود بالنفع الأخروي تقول العرب اغتنم الشيء عدّه غنيمة أي مكسباً واغتنم انتهز غنمه واغتنم الفرصة انتهزها وبادر إليها واستثمرها فيما ينفعه.

والوقت اسم يجمع على أوقات والمصدر وقّت تقول العرب وقّت الشيء أي جعل له وقتا محدداً يُفعل فيه وعرفوا الوقت بأنه مقدار من الزمان قدّر لأمرٍ ما واغتنام الوقت في الخير والطاعة والبر مطلوب شرعاً

روى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرجل وهو يعظه (اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شُغلِك وحياتك قبل موتك) **قال الحاكم:** هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله: وأوقاتك عمرك وعمرك رأس مالك وعليه تجارتك وبه وصولك إلى نعيم الأبد في جوار الله تعالى فكلُّ نفسٍ من أنفاسك جوهرٌ لا قيمة له إذ لا بدل له فإذا فات فلا عودة له فلا تكن كالحمقى الذين يفرحون في كل يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم فأي خير في مالٍ يزيد وعمر ينقص فلا تفرح إلا بزيادة علم أو عمل فإنهما رفيقاك يصحبانك في القبر حيث يتخلف عنك أهلك ومالك وولدك وأصدقاؤك ا.هـ بداية الهداية.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع الميت ثلاثة أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد يرجع أهله وماله ويبقى عمله متفق عليه **وقال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه:** إنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه فإن استطعتم أن تنقضوا الآجال وأنتم في عمل الله ـ ولا تستطيعون ذلك إلا بالله ـ فسابقوا في مهل بأعمالكم قبل أن تنقضي آجالكم فتردكم إلى سوء أعمالكم فالنجاء النجاء.

Scanned by CamScanner

ومن دعاء سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (اللهم إنا نسألك صلاح الساعات والبكرة في الأوقات)

وقال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنَّ الدنيا قد ارتحلت مدبرة وإنَّ الآخرة قد ارتحلت مقبلة ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل.

وقال فقيه الصحابة عبد الله بن مسعود رضي الله: عنه ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي وقال الحسن البصري رحمه الله يا ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يوم ذهب بعضك وقد قيل في المعنى

وما كذب الذي قد قال قبلي إذا ما مرَّ يوم مر بعضي

وقال الحسن البصري رحمه الله: أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشدَّ منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم **وقال أيضاً:** يا ابن آدم نهارك ضيفك فأحسن إليه وقال شعبة لا تجلسوا فارغين فإن الموت يطلبكم **وفي أدب الدنيا والدين للماوردي عن بعض الحكماء:** من أمضى يومه في غير حقٍّ قضاه أو فرض أدّاه أو مجد أثله ـ دعمه وقواه ـ أو حمد حصله أو خير أسسه أو علم اقتبسه فقد عقّ يومه وظلم نفسه **وقال سيدنا الإمام موسى الكاظم رضي الله عنه:** من استوى يوماه فهو مغبون ومن لم يعرف الزيادة في نفسه فهو في النقصان **وقال سيدنا عمر بن عبد العزيز:** إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما **وقال شميط بن عجلان:** الناس رجلان متزود من الدنيا أو متنعم فيها فانظر أي الرجلين أنت **وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه:** إن كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة **وقال داود الطائي:** إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زاداً لما يديك فافعل لأن انقطاع السفر عن قريب والأمر أعجل من ذلك فتزود لسفرك واقض ما أنت قاض من أمرك فكأنك بالأمر قد بغتك ا.هـ.

كان المفضل بن يونس الجعفي العابد الزاهد الثقة إذا جاء الليل قال: ذهب من عمري يوم كامل وإذا أصبح قال ذهبت ليلة كاملة من عمري **قال الإمام**

Scanned by CamScanner

الدقاق رحمه الله: الوقت ما أنت فيه الآن هذا هو وقتك فإن كنت في الدنيا فوقتك الدنيا وإن كنت بالعقبىٰ فوقتك العقبىٰ وإن كنت في سرور فوقتك السرور وإن كنت في حزن فوقتك الحزن، والمراد أن الوقت ما كان الغالب علىٰ الإنسان في حاله فوقتك الآن ما بين زمانين الماضي والمستقبل والموفق هو الذي لا يهتم بوقته الذي مضىٰ ولا الآتي بل يستثمر و يستفيد من وقته الحالي فالماضي يصلح بالتوبة والآتي يصلح بالتوكل علىٰ الله ولو اشتغل بهما ضيع الحاضر ولله در القائل:

إذا هبت رياحك فاغتنمها فعقبىٰ كل خافقة سكون

ولا تغفل عن الإحسان فيه فلا تدري السكون متىٰ يكون

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ) رواه البخاري في صحيحه.

وتأمل جيداً قول الحبيب صلىٰ الله عليه وسلم مغبون فيهما كثير من الناس **قال يحيى بن معاذ الرازي**: المغبون من عطّل أيامه بالبطالات وسلط جوارحه علىٰ الهلكات ومات قبل إفاقته من الجنايات.

وقال العارف ابن عطاء الله في تاج العروس: لا تنفق أنفاسك في غير طاعة الله ولا تنظر إلىٰ صِغر النفس بل انظر إلىٰ مقداره وإلىٰ ما يعطي الله فيه للعبد فالأنفاس جواهر وهل رأيت أحداً يرمي جوهرة علىٰ مزبلة؟!

وقال ابن عطاء الله في الحكم: ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه ا.هـ وكان داود الطائي يستف الفتيت ويقول بين سفّ الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية وكان عثمان الباقِلاَّوي دائم الذكر لله تعالىٰ فقال إني وقت الإفطار أحسّ بروحي كأنها تخرج لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر فالزمان أشرف من أن نضيع منه لحظة.

Scanned by CamScanner

ففي حديث جابر عند الترمذي وحسنه: قوله صلى الله عليه وسلم من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له بها نخلة في الجنة فكم ضيعنا من الثواب الجزيل فالأيام مزرعة فلا تتوقف أيها الزارع العاقل عن البذر في مزرعتك.

قال ابن عطاء الله في حكمه: ما فات من عمرك لا عوض له وما حصل لك منه لا قيمة له ا.هـ.

وقال في تاج العروس: والله ما عمرك من أول ولدت بل عمرك من أول يوم عرفت الله تأمل هذا جيداً تجد أن ما صرف من العمر في غير طاعة غير محسوب منه (واحضر دائماً معهم) أمر بمداومة الحضور مع السادات والسلاطين والأمرا مع أحباب القلب مع شامة الأزمان مع صفوة الإخوان مع قوم يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانتهم من الله عز وجل يوم القيامة **قال سيدي أبو مدين في هؤلاء الصفوة**:

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها ... كأنكم في بقاع الأرض أمطار
وتشتهي العين فيكم مظهراً حسنا ... كأنكم في عيون الناس أزهار
ونوركم يهتدي الساري لرؤيته ... كأنكم في ظلام الليل أقمار
لا أوحش الله رَبعاً من زيارتكم ... يا من لهم في الحشا والقلب تذكار

وقديماً قالوا من لم يزاحم الإخوان لا يحصل على هذا الشأن فالخير كله في مزاحمتهم والراحة كلها في صحبتهم والطمأنينة كلها في معيتهم **قال أبو الدرداء رضي الله عنه**: لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً الظمأ في الهواجر أي الصيام في شدة الحر والسجود في جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر من شم نفح طيبهم تعلق قلبه بهم وأدام حضور مجالسهم وحركه الشوق إلى رؤيتهم.

عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول والله إنك لأحب إليّ من نفسي وإنك لأحب إلي من أهلي

Scanned by CamScanner

ومالي وأحب إلي من ولدي وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ﴾ (النساء) رواه الطبراني برجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدي وهو ثقة كما في مجمع الزوائد للهيتمي رحمه الله.

فأي حرص على الحضور مع الأحباب أعلى من هذا فنفوسهم تشتاق للحضور معهم في الدنيا وتشتاق للحضور معهم في الجنة.

عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال:(كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي سل فقلت أسألك مرافقتك في الجنة قال أو غير ذلك قلت هو ذاك قال فأعني على نفسك بكثرة السجود) رواه مسلم واستأذن الصديق رضي الله عنه في الدفن بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عمر رضي الله عنه **وقال بلال وهو في الشام يودع الدنيا** (واطرباه غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه) **وقال البراء داعياً في أحد المعارك مع الكفار**: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك صلى الله عليه وآله وسلم فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيداً رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي **وقال أحد المحبين**: إن قطعوا رجلي جئت على الأخرى وإن قطعوا الأخرى حبوت إليهم حبوا.

وقد فاز أبو هريرة بكثرة الرواية لمداومته الحضور وملازمته الجلوس مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال**: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم يتلو ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ ﴾ (البقرة)

Scanned by CamScanner

إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون تأمل ويحضر ما لا يحضرون تعرف قول الناظم واحضر دائماً معهم فلا وقت يعادل وقت صحبتهم ولا زمان تنقش معانيه في قلوب المحبين غير زمان خدمتهم فالبدار البدار إلى اغتنام الحضور في تلك المجالس الربانية فالصحابة كانوا يغتنمون تلك المجالس.

روى الطبراني بإسناد حسن عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر انحرفنا إليه فمنا من يسأله عن القرآن ومنا من يسأله عن الفرائض ومنا من يسأله عن الرؤيا وسار على هذا النهج من اتبعهم بإحسان فهذا الإمام الجليل الذكي أبو يوسف القاضي الألمعي كان شديد الملازمة لشيخه الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه لازم مجلسه مدة طويلة ما فاته صلاة الغداة معه ولا فارقه في فطر ولا أضحى إلا من مرض.

روى محمد بن قدامة قال: سمعت شجاع بن مخلد قال سمعت أبا يوسف يقول مات ابن لي فلم أحضر جهازه ولا دفنه وتركته على جيراني وأقربائي مخافة أن يفوتني من أبي حنيفة شيء لا تذهب حسرته عني ذكره شيخ مشايخنا عبد الفتاح أبو غدة في قيمة الزمن

فالزم أيها المريد حضور مجالسهم فليس لك من الوقت إلا ما حضرت فيه معهم فالحضور معهم غنيمة وقد قيل نعمة الإخوان غنيمة ليس لها في الأثمان قيمة فاغتنم هذه النعمة قبل الفوات فتندم ولات حين مناص.

روى البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: جاء نفر من بني تميم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا بني تميم أبشروا قالوا بشرتنا فأعطنا فتغير وجهه فجاءه أهل اليمن فقال يا أهل اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قبلنا فأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحدث بدء الخلق والعرش فجاء رجل فقال يا عمران راحلتك تفلتت ليتني لم أقم وفي لفظ للبخاري قالوا أي أهل اليمن قد قبلنا يا رسول الله قالوا جئنا نسألك عن هذا الأمر قال كان

Scanned by CamScanner

الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض فنادى منادٍ ذهبت ناقتك يا ابن الحصين فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب فو الله لوددت أني تركتها، وفي لفظ للبخاري وأيم الله لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم ، هذا ندم عمران رضي الله عنه فلا تقع في ندم الفوات.

قال يزيد بن هارون لأحد طلابه: وهو من ولد عمر بن الخطاب أي من نسله جاء وقد فاته المجلس وسأله أن يحدثه أما علمت أن من غاب خاب وأكل نصيبه الأصحاب يا لها من حسرة يعرف مرراتها الأحرار.

روى السمعاني عن رجل من المحدثين أنه رحل إلى ابن خلف فقال دخلت نيسابور وأنا أعدو إلى بيت أحمد بن خلف فلقيت أحد طلابه فعاتبني وقال تعال أطعمك أولاً فقدم طعاماً وأكلت وأخرج لي مسموعاته من ابن خلف وقال مات ودفنته قال فكادت مرارتي تنشق لفوت الشيخ.

وذيل الخطيب كتابه الرحلة بذكر من رحل إلى شيخ يبتغي علو إسناده فمات قبل ظفر الطالب منه ببلوغ مراده وذكر أن عبد الله بن داود الخريبي قال كان سبب دخولي البصرة أنّ ألقى ابن عون فلما صرت إلى قناطر بني دارى تلقاني نعي ابن عون فدخلني ما الله به عليم ا.هـ.

فالبدار البدار إلى الحضور فبالحضور تنال السرور فاغتنم الوقت واحرص عليه لتفوز بغنم اللقاء فقد تعلمنا ذلك من السادة الصوفية رضي الله عنهم.

قال سيدنا الإمام الشافعي رضي الله عنه: صحبت الصوفية واستفدت منهم كلمتين قولهم الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك وقولهم اشغل نفسك بالخير فإن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر فانظر إلى صحبة هذا الإمام للصوفية وانظر إلى تواضعه وإخباره بعظيم ما تعلمه واستفاده منهم حفظ الوقت وأي حفظ له أعظم من الحضور مع هؤلاء السادات والسلاطين والأمرا وشغل النفس بالخير وأي خير أعظم من مرافقة هؤلاء المنعم عليهم لذلك حرص السلف على الدعاء والضراعة بين يدي الله عز وجل أن يرزقهم الحضور مع هؤلاء الصالحين.

Scanned by CamScanner

روى الترمذي وصححه عن حريث بن قبيصة قال: قدمت المدينة فقلت اللهم يسر لي جليساً صالحاً قال فجلست إلى أبي هريره فقلت إني سألت الله أن يرزقني جليساً صالحاً فحدثني بحديث سمعته من رسول الله لعل الله ينفعني به فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن خابت فقد خاب وخسر فإن انتقص من فريضته شيء.

قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على ذلك واعلم أن الحضور مع هؤلاء الأبرار لا تتم فائدته ولا تكتمل عائدته إلا إذا كان بالقلب والقالب وكمال الأدب فاخرج عنك إذا حضرت بين أيديهم وانطرح وانكسر إذا حللت بناديهم.

روى أحمد وأبو داود والطيالسي والحاكم وابن حبان وصححاه عن أسامة بن شريك قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عنده كأنما على رؤوسهم الطير .... الحديث.

واعلم أنك بالأدب تذوق لذة الحضور وقد ظهر أدب المريدين مع الأشياخ بين جموع السادة الصوفية تأسياً بأدب الصحابة رضوان الله عليهم مع حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فالصحابة كانوا يقبلون يد رسول الله كما هو ثابت في الأحاديث الصحيحة وكانوا يحملون عنه حذاءه ورداءه ولا يتقدمون عليه ولا يقدِّمون بين يديه ويتبركون بآثاره صلى الله عليه وآله وسلم وقد أمر الله الأبناء بتعظيم الآباء وأمر المأموم أن يتأخر عن الإمام واستذكر أدب موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام وكيف كان فتى موسى يوشع يحمل عن سيدنا موسى متاعه فلا بد من الاحترام ولا بد من الأدب في حضرة الكرام ورعاية المقام من أدب الإسلام وخدمة القوم عبادة وهي من أسباب الفتح وقديماً قالوا من خدم قَدَمْ (واعلم بأن

Scanned by CamScanner

الرضا يختص من حضرا) أي حَضَرَ معهم قلباً وقالباً خدمة ومحبة فمن حضر مع الكرام نال الكرامة ومن حضر مجالس السعداء نال السعادة ومن صحب الأصفياء فاز بالصفاء والاصطفاء فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم ولا يعذب ببركتهم رفيقهم مجالسهم إيمانيه.

قال معاذ بن جبل لأحد أصحابه: يتذاكر معه اجلس بنا نؤمن ساعة رواه البخاري في صحيحه معلقاً **وعند البيهقي في الشعب عن عطاء بن يسار:** أن عبد الله بن رواحة قال لصاحب له تعال نؤمن ساعة قال أولسنا مؤمنين قال بلى ولكنا نذكر الله فنزداد إيماناً.

وعن أنس بن مالك قال: كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله قال تعال نؤمن بربنا ساعة فقال ذات يوم لرجل فغضب الرجل فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة فقال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة رواه أحمد بإسناد حسن قاله المنذري مجالسهم تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة وتتنزل فيها السكينة.

عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده) رواه مسلم كما في رياض الصالحين للنووي.

وعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية رضي الله عنه على حلقة في المسجد فقال ما أجلسكم؟ قالوا جلسنا نذكر الله قال آلله ما أجلسكم إلا ذاك قالوا ما أجلسنا إلا ذاك قال أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله أقل عنه حديثاً مني إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال ما أجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا قال آلله ما أجلسكم إلا ذاك قالوا والله ما أجلسنا إلا

Scanned by CamScanner

ذاك قال أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة رواه مسلم ومعنىٰ يباهي بكم أي يفاخر بكم.

وقد دل الحديث على مكانة الذاكرين وعلو منزلتهم عند الله وأنهم محل رضوانه جل وعلا مجالسهم رياض الجنة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال(إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر) رواه الترمذي وحسنه وغنيمة مجالسهم الجنة.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قلت يا رسول الله ما غنيمة مجالس الذكر قال غنيمة مجالس الذكر الجنة رواه أحمد بإسناد حسن قاله المنذري وأهل هذه المجالس أهل كرم الله يوم الجمع الأكبر يوم القيامة.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال يقول الله عز وجل يوم القيامة سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم فقيل ومن أهل الكرم يا رسول الله قال أهل مجالس الذكر رواه أحمد وأبو يعلىٰ وابن حبان في صحيحه هؤلاء القوم هم أهل رضوان الله الأكبر.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال (إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون وأي شيء أفضل من ذلك فيقول أحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا) متفق عليه قال تعالىٰ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ (البينة) وقال عز وجل ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة: ٧٢) أي أكبر من كل نعيم (اللهم أدخلنا في دائرة رضوانك الأكبر بجاه نبيك المرتضىٰ الأغر الأزهر صلىٰ الله عليه وسلم).

Scanned by CamScanner

فائدة:

خمَّس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

اسلك طريقهم إن كنت تابعهم واترك دواعيك واحذر أن تراجعهم

فيما يريدونه واقصد منافعهم واستغنم الوقت واحضر دائماً معهم

واعلم بأن الرضا يختص من حضرا

واتفق لي في هذا المعنى:

وانصت إذا حدثوك فالحديث لهم فهم عِلَيةُ القوم والإرشاد منهجهم

والنور يصحبهم فهم للناس كعبتهم واستغنم الوقت واحضر دائماً معهم

واعلم بأن الرضا يختص من حضرا

Scanned by CamScanner

٤- ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

شرح البيت رقم (٤)

كي يجني الفقير ثمرته من شجرة الانتساب إلى الصوفية الأخيار الذين هم السادات والسلاطين والأمرا لا بد من المحافظة على أدب الصحبة لهم **وقد ذكر الناظم من الآداب:**

١- عدم التقدم عليهم مهما قدموك وخل حضك ورا.

٢- مداومة الحضور معهم .

وشرع الآن يفصل أدباً ثالثاً وهو ملازمة الصمت ورابعاً هو التستر بالجهل في حضرتهم ليتعلم منهم فقال:

ولا زم الصمت إلا إن سئلت فقل لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

الصمت أحد أركان التصوف ومن لازمه ارتفع بنيانه وتم غراسه.

والصمت لغة: مصدر قولهم صَمَتَ يَصْمُتُ إذا سكت وهو مأخوذ من مادة ص م ت التي تدل على إبهام وإغلاق يقال من ذلك صمت الرجل وأصمت إذا سكت ومنه قولهم لقيت فلاناً بِبلدة إِصْمِتَ وهي القفرُ التي لا أحد بها كأنها صامتة ليس بها ناطق ويقال ماله صامت ولا ناطق فالصامت الذهب والفضة والناطق الإبل والغنم والخيل والصّمُوتُ الدِّرعُ اللَّينة التي إذا صبها الرجل على نفسه لم يُسمع لها صوت وباب مُصمَتٌ قد أُبْهِم إغلاقه والصامت من اللَّبن الخاثر لأنه إذا كان كذلك فأفرغ في إناء لم يسمع له صوت.

والصمت اصطلاحاً: إمساك عن قول الباطل دون الحق قاله الكفوي في الكليات.

وقال الإمام المناوي في التوقيف على مهمات التعريف: الصمت فقْدُ الخاطِرِ بوِجْدٍ حاضِرٍ وقيل سقوط النطق بظهور الحق وقيل انقطاع اللسان بظهور العيان ا.هـ.

Scanned by CamScanner

وقال بعض الصوفية: إذا كان الإنسان ناطقاً فيما يعنيه فهو في حد الصامت.

وقال الإمام ابن علان الشافعي في شرحه على قصيدة أبي مدين رحمه الله والصمت نوعان:

- صمت باللسان.
- وصمت بالجنان.

وكلاهما لا بد منهما في الطريق فمن صمت قلبه ونطق لسانه نطق بالحكمة ومن صمت لسانه ونطق قلبه خفّ وزره ومن صمت لسانه وصمت قلبه تجلّى له سره وكلمه ربه وكلام الشيخ قابل لذلك كله ا.هـ.

قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في الإحياء: إن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فإنه صغير جِرْمُه عظيم طاعته وجُرمه إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللِّسان وهما غاية الطاعة والعصيان وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فإنه لا تَعَبَ في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحَبائله وإنَّه أعظم آلةٍ للشيطان في استغواء الإنسان واللسان رحبُ الميدان ليس له مردُّ ولا لمجاله منتهى وحدّ وله في الشرَّ ذيلٌ سُحِبَ فمن أطلق عذَبة اللسان أي طرفه وأهمله مرخيَّ العِنان سلك به الشيطانُ في كل ميدانٍ وساقه إلى شفا جرفٍ هار إلى أن يضطره إلى البوار ولا يكُبُ الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلاّ من قيّده بلجام الشرع فلا يُطلِقُه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفهُ عن كل ما يخشى غائلَتُهُ في عاجِله وآجله ذلك أنّ خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وآله وسلم من صمت نجا ا.هـ.

أقول: رواه أحمد والدارمي والترمذي من حديث عبدالله بن عمرو وصححه أحمد شاكر ووثق رواته المنذري في الترغيب والحافظ في الفتح وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء رواه الطبراني بسند جيد وقال تعالى ﴿ **لَّا خَيْرَ فِي**

Scanned by CamScanner

كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾(النساء).

وفي **الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم** (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)

وعن الحارث بن هشام رضي الله عنه: أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (أخبرني بأمر أعتصم به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أَمْلِكْ هذا وأشار إلى لسانه رواه الطبراني بإسنادين أحدهما جيد قاله المنذري في الترغيب.

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله (حدثني بأمر أعتصم به قال قل ربي الله ثم استقم) قلت يا رسول الله (ما أكثر ما تخاف عليّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال هذا) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

وعن معاذ رضي الله عنه قال: يا رسول الله (أوصني قال اعبد الله كأنك تراه واعدد نفسك في الموتى وإن شئت أنبأتك بما هو أملك بك من هذا كله قال هذا وأشار بيده إلى لسانه) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد قاله المنذري.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير فقلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحجُّ البيت ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل من جوف الليل قال ثم تلا ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (السجدة) ثم قال (ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه ؟ قلت بلى يا رسول الله قال رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كلِّه قلت بلى يا نبيّ الله فأخذ بلسانه قال كفّ عليك هذا فقلت يا نبيّ الله وإنا

Scanned by CamScanner

لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال ثكلتك أُمك يا معاذ وهل يكب الناس على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ما النجاة قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك رواه الترمذي وحسّنه.

واخرج بن أبي الدنيا والبيهقي والقضاعي في مسند الشهاب عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن يسلم فليلزم الصمت.

وأخرج ابن النجار عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أوصني قال أوصيك بحسن الخلق والصمت هما أخف الأعمال على الأبدان وأثقلها في الميزان.

وأخرج الطبراني وأحمد وابن حبان والحاكم وصححاه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (عليك بطول الصمت إلا من خير فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم آتٍ فقال يا رسول الله إني مطاع في قومي فبم آمرهم؟ فقال مرهم بإفشاء السلام وقلة الكلام إلا فيما يعنيهم أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه رواه مالك والترمذي وابن ماجه وهو حديث حسن.

وعن عبد الله رضي الله عنه: أنه ارتقى الصفا فأخذ بلسانه فقال يا لسان قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أكثر خطأ ابن آدم في لسانه) رواه الطبراني ورواته رواة الصحيح كما في الترغيب للمنذري.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة) رواه البخاري.

Scanned by CamScanner

وعن أم حبيبة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهيٌ عن منكر أو ذكر الله رواه الترمذي وابن ماجه وهو حديث حسن.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي) رواه الترمذي والبيهقي وهو حديث حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال رواه مسلم، وأخرج أبو نعيم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصمت أرفع العبادة قاله السيوطي في حسن السمت في الصمت.

وأخرج الديلمي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصمت سيد الأخلاق قاله السيوطي رحمه الله.

وأخرج البيهقي في الزهد وابن لال في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في العزلة وواحد في الصمت) قاله السيوطي في حسن السمت.

وأخرج الطيالسي وأحمد بإسناد حسن عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم طويل الصمت.

وعند النسائي بإسناد صحيح عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة.

وأخرج ابن أبي الدنيا في الصمت عن مجاهد رحمه الله قال: كانوا يكتفون من الكلام باليسير وفي الصمت لابن أبي الدنيا **أيضاً عن يعلى بن عبيد رحمه الله قال:** دخلنا على محمد بن سوقه فقال أحدثكم بحديث لعلّه ينفعكم فإنه قد نفعني

Scanned by CamScanner

قال لنا عطاء بن أبي رباح يا بني أخي إنَّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدُّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن تقرأه أو تأمر بمعروف أو تنهىٰ عن منكر أو تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها أتنكرون ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (الانفطار) ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (ق) أما يستحي أحدكم أن لو نشرت عليه صحيفته التي أملىٰ صدر نهاره وكان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ا.هـ.

وكان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام وكان يشير إلىٰ لسانه ويقول هذا الذي أوردني الموارد ذكره الغزالي في الإحياء **وفي الإحياء أيضاً** قيل لعيسىٰ عليه السلام دلنا علىٰ عمل ندخل به الجنة قال لا تنطقوا أبداً قالوا لا نستطيع ذلك فقال فلا تنطقوا إلاّ بخير.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: تعلموا الصمت كما تعلمون الكلام فإن الصمت حلم عظيم وكن إلىٰ أن تسمع أحرص منك إلىٰ أن تتكلم ولا تتعلم في شيء لا يعنيك ولا تكن مضحاكاً من غير عجب ولا مشاءً إلىٰ غير أرب رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق **وقالوا في فوائد الصمت أنه:**

١- عبادة من غير عناء.
٢- زينة من غير حلي.
٣- هيبة من غير سلطان.
٤- حصن من غير حائط.
٥- الاستغناء عن الاعتذار لأحد.
٦- راحة للكرام الكاتبين.
٧- فيه ستر للعيوب.

والصمت من آداب الحضرة ولهذا كله عدّ السادة الصوفية الصمت ركناً من أركان التصوف.

قال أبو بكر الوراق الحكماء: خَلَفُ الأنبياء وليس بعد النبوة إلا الحكمة وهي إحكام الأمور وأول علامات الحكمة طول الصمت والكلام علىٰ قدر الحاجة

Scanned by CamScanner

وأظنك من خلال هذا كله أدركت معنى قول الناظم لازم الصمت وأن هذا من هدي النبي صلى الله عليه وسلم وهدي أصحابه وعليه الصوفية لا تتكلم إلا في خير ومن تكلم فيما يعنيه فهو في حدِّ الصمت.

والأدب الرابع التستر بالجهل في حضرة العارفين وإليه أشار الناظم بقوله:

.....إلا إن سئلت فقل لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

فالفقير لا يخرج إلا في أوصافه من فقر وذل وجهل وضعف وكيف يصح لمن ترك حظه وراء أن يتكلم في حضرة أهل العارفين الأعلام ومن صحب ليتعلم ما كان له أن يتكلم فإنه لا يصح التعلم مع وجود الكلام وكثرة الحديث الموهم للعلم والفهم لذلك كان الصحابة يترقبون قدوم الأعراب يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستفيدوا.

فالصوفية لا يحبون الفقير الثرثار فلا تتكلم إلا فيما ينفع.

قال ابن العتاهية: (دع عنك حشو الكلام إذا هديت لعيونه) لا تسأل إلا لضرورة كتصحيح فهم واستيضاح مسألة من مسائل الدين فإن سئلت بحضرة العارفين فقل لا علم عندي وكن بالجهل مستتراً وإن سألوك فقل كيف يكون لي علم وأنا جئت طالباً علومكم وراغباً في فهومكم لأنَّ بسؤالهم لك في محل الاختبار قد يكون منهم لمعرفة مدى دعواك في نفسك ومالك فيها من الانتصار فيمنعونك في هذه الحالة من علومهم فَتُحرم من معارفهم.

قال ذو النون: يا معشر المريدين من أراد منكم الطريق فليلق العلماء بالجهل والزهاد بالرغبة وأهل المعرفة بالصمت وهذا الحال قد دلت عليه مواقف واضحات من سيرة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم فكم مرة يسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون الله ورسوله أعلم يستترون بفقرهم ونهاية ضعفهم وإنما يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لينفعهم فيسأل ليجيب هو وهكذا القوم اقتدوا بأخلاق نبيهم وشربوا من كأسه فقد يسألونك ليجيبوك فيفيدوك وتأمل هذه النصوص الصحيحة لتدرك صحة ما قررناه.

Scanned by CamScanner

روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم بمنى أتدرون أي يوم هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم فقال إن هذا يوم حرام أفتدرون أي بلد هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال بلد حرام أفتدرون أي شهر هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال شهر حرام قال فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم واعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا **وأخرج مسلم في صحيحه حديث جبريل الطويل الملقب بأم السنة وفيه** السؤال عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة وفي آخره قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.

وروى مسلم حديث معاذ رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرَّحل فقال يا معاذ بن جبل قلت لبيك يا رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك يا رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال هل تدري ما حق الله عز وجل على العباد قال قلت الله ورسوله أعلم قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قال قلت الله ورسوله أعلم قال أن لا يعذبهم وفي هذا القدر كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

Scanned by CamScanner

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

كن راضياً بهمو تسموا بهم وتصل إن أثبتوك فقم وإن محوك فزُل
وإن أجاعوك جع أو أطعموك فكل ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل
لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

واتفق لي في هذا المعنى:

إن رمت نوراً بوسط الفؤاد يَحُلّ كن للسر كتوماً ولا تبحه لأي رجل
وقل نذرت فلا كلام مني يَطُلّ ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل
لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

Scanned by CamScanner

٥- ولا ترَ العيب إلا فيك معتقداً عيباً بدا بَيِّناً لكنه استترا

شرح البيت رقم (٥)

ومن آداب الصحبة: أن تدرك أيها المريد حقيقة نقصك وأنك تصحب هؤلاء الأخيار طلباً للترقي في مقامات الكمال على أيديهم وقد قيل التصوف طلبُ الكمال فالمريد الصادق متى صحب القوم لينال فوائدهم وينتفع بمآثرهم لا بد له من ترويض قلبه بخدمتهم ليصلح عوائده ويتخلص من معايبه وبداية هذا أن لا يلاحظ العيب والنقصان إلا في نفسه وأن يستحضر على الدوام قول الحق عز وجل ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ (يوسف٥٣) أي وما أنزه نفسي عن الفرطات والغفلات والخواطر القبيحة والديدنة الشنيعة على مقتضى القوى الشهوانية واللذة البهيمية وكيف أبرئ وأنزه نفسي إن النفس المركوزة في الجبلة الإنسانية لأمارة مائلة بالطبع بالسوء والفساد متوجهة نحوه إذا خُليت وطبعها فالمريد الصادق يأتي إلى القوم معتقداً جهله وذنوبه وعيوبه طالباً إصلاح نفسه وتزكيتها على أيديهم وإلى هذا المعنى الذي قررناه.

أشار الناظم بقوله: ولا ترَ أيها المريد الصادق العيب مفعول ترى إلا فيك معتقدا بقلبك على جهة الحقيقة عيباً بدا أي ظهر بيناً واضحاً لكنه مع بدوه وظهوره استترا بستر الله الجميل عليك وتأمل قول الحق عز وجل ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ (الإسراء).

والعيب لغة: مصدر عاب والجمع عيوب وهو النقص والفعل منه عيّب يعيّب والمصدر تعييبا فهو معيِّب اسم فاعل والمفعول معيَّبٌ والعيب يراد منه وصمة ـ نقيصة ـ شائبة ـ مّذمة ـ عوره، يقال عاب شغله صيره ذا عيب ويقال عاب سلوكه أي نسبه إلى العيب ويقال عاب عليه فعل كذا أو عابه على فعل كذا أي عدّ فعله عيباً وعاب الشيء جعله معيباً واعلم أنك متى اعتقدت العيب فيك سهلت على الشيخ المربي علاجك.

Scanned by CamScanner

قال سيدنا عمر رضي الله عنه: (رحم الله امرءاً أهدىٰ إليَّ عيوبي) أي ظاهراً وباطنا هديّة قولية وهدية حاليّة والحال عند الأبرار يغني عن المقال فلا ترَ العيب أيها المريد الصادق إلا في نفسك معتقداً جازماً معترفاً بما تراه في قرارة نفسك منه قال تعالىٰ ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ (القيامة).

ومهما استتر العيب فلا يمكنك إلا أن تعتقده فيك لأن حقيقتك النقص ومهما استتر عيبك عن العيون الظاهرة فهو لا يستتر عن العيوب الباطنة فأنت تدركه في قرارة نفسك والشيخ المربي يدركه فيك إدراك الطبيب علة المريض الذي يتعالج عنده فمهما حاول المريض إخفاء علته عند الطبيب لا يستطيع وكذلك المريد مع الشيخ المربي ولكن الشيخ المربي يستره عليك بستر الله عليك لأن غرضه تربيتك لا فضيحتك ولا يمنعه ذلك من علاجك ونصحك وإرشادك بمقاله وحاله فتراه يعالجك من غير فضيحة ويرقيك في مقام الكمال في آداب النصيحة ويخلِّصُك من معاييك بأبدع طريقة فلله درهم من رجال أدام الله نفعنا بهم (آمين).

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

ولا تكن لعيوب الناس منتقداً وإن تكن ظاهراً بين الوجود بدا
وانظر بعين كمال لا تعب أحدا ولا تر العيب إلا فيك معتقدا
عيبا بدا بيناً لكنه استترا

واتفق لي في هذا المعنى:

واندم علىٰ ما مضىٰ وكن معتبرا وقف علىٰ قدم التوحيد مذكِّرا
ولا تعب أحداً ولو بالعيب قد شُهِرا ولا تر العيب إلا فيك معتقدا
عيباً بدا بيناً لكنه استترا

Scanned by CamScanner

٦- وحط رأسك واستغفر بلا سبب وقم على قدم الإنصاف معتذرا

شرح البيت رقم (٦)

طريق القوم الخلاص من ظنك عيش النفس والوصول إلى تذوق حلاوة الأنس في حضرة القدس ولا يكون هذا إلا بمتابعة الشريعة الغراء والتأدب بآداب الطريقة فهذه الآداب مفتاح الانتفاع بصحبة الأبرار **وقد طلب الناظم في هذا البيت من المريد ثلاثة أشياء:**

١- الأول حط رأسك.

٢- الثاني واستغفر بلا سبب.

٣- والثالث قم على قدم الإنصاف معتذرا.

ووجه هذه الثلاثة يتضح من تذكر ما سبق تقريره في البيت الخامس:

ولا ترَ العيب إلا فيك معتقداً عيباً بدا بيناً لكنه استترا

فلا ترَ العيب أيها المريد الصادق إلا فيك معتقداً جازماً معترفاً بما تراه في قرارة نفسك منه فمن شأن المريد الصادق أن يدرك حقيقة نقصه وأن يعتقد العيب في نفسه وأن يتذكر على الدوام كثرة كبريائه وغيه وما عليه حاله من البعد وفؤاده من الدعوى والفقد وكما يشاهد المريد نفسه بالوجه الذي ذكرنا معتقداً أن هذه حقيقته فهو يشاهد إخوانه بعين الكمال يشاهد ما هم عليه من حسن الأدب والسمت والعمل وحال القرب وصدق الدعوى وسابقة الفضل وعالي المقام فإن من نظر إلى إخوانه كذلك قطعاً يحتشم خجلاً ويحط رأسه معترفاً بعلو كعبهم وضعف حاله عن حالهم فعبّر الناظم بحط الرأس لما في حط الرأس من اعتراف واعتذار **فالمريد الصادق** لا يستشعر في مقام صحبة الأبرار غير ذنوبه ولا في مجالسهم غير جهله وعيوبه، فمن أتى إخوانه فارغاً رجع من عندهم عبداً واصلاً ومن أتى بغير ذلك رجع عاطلاً ومتى كان الفقير بهذا الوصف الذي قررناه من اعتقاده العيب في نفسه والكمال في خلانه وأهل وداده وأحباب قلبه الذين هم محل

Scanned by CamScanner

الاقتداء حط رأسه خجلاً واستغفر بلا سبب ظاهر للاستغفار والسبب الظاهر للاستغفار هو الذنب.

والفرق بين الذنب والعيب: أن الذنب يكون في وقت متى كان دون وقت بخلاف العيب فإنه حالة ملازمة لصاحبها ما دام لم تتركَ نفسه ويطيب معناه ومبناه فما دام العيب موجوداً وهو ما يعتقده المريد في نفسه والعيب ذنب ترجو الخلاص منه ببركة صحبة الأبرار أطباء القلوب فهذا العيب الذي تعتقده في نفسك يوجب منك الاستغفار بلا سبب ومن هنا تفهم ما تراه عند القوم من كثرة اتهامهم لأنفسهم وكثرة مداومة استغفارهم ومراعاة التخلص من حظوظهم السر في ذلك كله اعتقاد المريد العيب في نفسه فتراه يلازم الاستغفار بلا سبب ومتى كان المريد بهذا الوصف أنصف وأسرع إلى الاعتذار من إخوانه فالعيب فيه لا في إخوانه لأنه يراهم بعين التعظيم.

وخذ شاهداً على هذا ما رواه مسلم عن أبي هبيرة عائذ بن عمرو المزني وهو من أهل بيعة الرضوان رضي الله عنه أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها فقال أبو بكر رضي الله عنه أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فقال يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك فأتاهم فقال يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا لا يغفر الله لك يا أخي) رواه مسلم إتيان أبي سفيان هذا حينما كان كافراً في الهدنة بعد صلح الحديبية.

وقوله فقالوا ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها أسلوب يفيد التحسر على أن سيوف جند الله لم تقتل هذا الكافر ولم تنل منه في الحروب السابقة بين المسلمين والمشركين ومجمل معنى التمني أن تنال هذه السيوف من هذا العدو في المستقبل قوله فقال أبو بكر أي لأصحابه سلمان وصهيب وبلال أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم استفهام إنكاري توبيخي أي لا ينبغي أن تقولوا هذا ووصفه بأوصاف السيادة استنكارا لتمنيهم القتل له والمؤمن يسأل الله العافية والهداية أولى من أن يسأل للعدو القتل ، فلما أخبر الصديق رضي الله عنه النبيَّ صلى

Scanned by CamScanner

الله عليه وسلم بما دار بينه وبين أصحابه سلمان وصهيب وبلال في شأن أبي سفيان قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك لأنهم لم يقولوا نكراً ولا هجراً بل هي منهم كلمة حق وصدق وفيها تحمّسٌ للإسلام وعز أهله وكبت أعدائه وفي هذا فضيلة ظاهرة لسلمان ورفقته هؤلاء وفيه مراعاة قلوب الضعفاء وأهل الدين وإكرامهم وملاطفتهم.

لذلك ذهب الصديق رضي الله عنه حاطاً رأسه معتذراً وقام بين أيديهم يطلب منهم الصفح ملتمساً المغفرة فما حجبته منزلته من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن توفية حقوق أهل النسبة إخوانه في الطريقة وخلانه في الحقيقة.

فالمراتب لا شفاعة لها أمام توفية الآداب مع الإخوان فمتى استشعر المريد كثرة حقوق إخوانه عليه اعترف بالذنب وحط رأسه معتذرا وقام بين يدي إخوانه منصفاً لهم من نفسه.

فائدة :

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

تنل بذلك ما تره من أدب والنفس ذلل لهم ذلاً بلا رِيَبِ

بل كل ذلك دل ناب عن أدب وحط رأسك واستغفر بلا سبب

وقم على قدم الإنصاف معتذرا

واتفق لي في هذا المعنى:

واستغفر الله من غش ومن كذب وقف على قدم الإخلاص في أدب

وقل يا هادي اهدني أُهدى إلى قرب وحط رأسك واستغفر بلا سبب

وقم على قدم الإنصاف معتذرا

Scanned by CamScanner

٧- وإن بدا منك عيب فاعتذر وأقم وجه اعتذارك عما فيك منك جرى

شرح البيت رقم (٧)

وإن بدا أي ظهر منك عيب أيها المريد الصادق فاعتذر وأقم وجه اعتذارك فالاعتذار عند الزلل شأن الأكابر وخلق من أخلاق الأقوياء وعلامة من علامات الثقة بالنفس التي لا يتصف بها إلا الكبار الذين لديهم القدرة على مواجهة الآخرين بكل قوة وشجاعة وأدب وتأمل في القرآن تجد ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (يوسف) وتجد ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النمل)

وتجد في السنة أنَّ ناساً من الأشعريين قوم أبي موسى الأشعري رضي الله عنه طلبوا منه مرافقتهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن يعلم ما يريدون وإذا بهم جاؤوا ليطلبوا الإمارة والولاية على بعض أعمال المسلمين فظهر أبو موسى وكأنه جاء ليشفع في طلب الإمارة فردهم النبي صلى الله عليه وسلم رداً لطيفاً ولكن الصحابي الجليل شعر بالحرج الشديد فقال فاعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبل وعذرني والقصة رواها أحمد في مسنده والنسائي.

وعند أحمد في المسند أيضاً: قول عمر رضي الله عنه حين جاء يوم الجابية يوضح للناس أسباب عزل خالد بن الوليد .... وإني أعتذر إليكم من عزل خالد بن الوليد وروى أحمد رحمه الله أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه طلب ماء من رجل من أهل الكتاب ليشرب فجاءه الكتابيّ بالماء في إناء من فضة فرماه حذيفة بالإناء ثم أقبل على القوم فاعتذر اعتذاراً وقال إني إنما فعلت ذلك لأني كنت نهيته قبل هذه المرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهانا عن لبس الديباج والحرير وآنية الذهب والفضة فأوضح لمن معه أن هذا الرجل يعلم الحرمة ومع ذلك تكرر منه ما يدعو للغضب.

Scanned by CamScanner

وفي قول الناظم عما فيك منك جرى إشارة إلى أن المريد الصادق في مرتبة بين مقامين وفي واحد من حالين **الأول اعتقاد العيب** وإليه الإشارة بقول الناظم ولا ترَ العيب إلا فيك معتقداً والأصل في العيب أن يكون مستترا إلاّ أنه قد يبدو في بعض الأحيان فينقلك إلى **المقام الثاني** وهو مقام الاعتراف والاعتذار من الذنب والعيب الذي بدا منك لأن مصدر الذنوب ما كمن في النفس من العيوب.

فالفقير بين حالة دائمة من اعتقاد العيب في نفسه وهو الأصل وحالة غير دائمة وهي الاعتراف والاعتذار متى بدا منك ذنب من هذا العيب والأول يوجب حط الرأس ودوام الاستغفار والثاني يستلزم القيام بوجه الاعتذار.

ولذا قال الناظم: عما فيك فالعيب فيك منك جرى أي الذنب منك جرى فالمريد الصادق بين حقيقة وشريعة حقيقته اعتراف بالنقص والعجز وشريعته المبادرة إلى الاعتذار متى ظهر ذلك العيب الأول لجام النفس في سريرتها باعتقاد العيب فلا تتكبر ولا تتعالى وهي تشعر بالنقص وهذا لحط الرأس ودوام الاستغفار والثاني لجام للنفس في ظاهريتها وذلك بالاعتذار والاعتراف وهذا للتواضع والاعتذار عن الخطأ.

فائدة:

خمس سيدي ابن عربي هذا البيت بقوله:

إن شئت منهم بريقاً للطريق تشُم عن كل ما يكرهوه من فعالك ذم
والنفس منك على حسن السؤال أدِم وإن بدا منك عيب فاعترف وأقم
وجه اعتذارك عما فيك منك جرى

واتفق لي في هذا المعنى:

كلي عيوب فاسترني يا رحيم بهم واللُّطف يا رباه منك عليَّ أدم
فالله تواب يقبل ممن ندم وإن بدا منك عيب فاعترف وأقم
وجه اعتذارك عما فيك منك جرى

Scanned by CamScanner

٨- وقل عبيدكم أولى بصفحكمو فسامحوا وخذوا بالرفق يا فقرا

شرح البيت رقم (٨)

وقل أيها المريد الصادق بلسان حالك وصادق مقالك قل للسادات والسلاطين والأمرا قل لأهل ودادك وأحباب قلبك قل أيها المريد الصادق لهؤلاء الأبرار قل لهم في حال انكسارك هذا عبيدكم الضعيف البعيد الجاني على نفسه هو أولى الناس بصفحكم يا أهل المكارم يا من أثنى الله عليكم بقوله عز وجل ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:١٣٤) وإنما كان عبيدكم أولى الناس بصفحكم لأنه أكبر الناس عيوباً وأكثرهم ذنوباً ومن كان هذا حاله فهو أولى أن يُرحم فسامحوا يا كرام وخذوا بالرفق يا فقرا يا سادة يا سلاطين يا أمرا فإني ببطحاء جمالكم وفي رحاب طيب خصالكم أتعلق بأذيالكم وألثم تراب نعالكم خذوا بالرفق في شأني لا تقطعوني بذنبي بعد طيب وصالكم فلا طاقة لي على هجركم فقد ملكتم قلبي وروحي سامحوني مهما غفلت وارفقوا بي مهما أذنبت واحملوني مع عيبي فأنتم كرام لا يضام نزيلكم ولا يحرم العفو قاصدكم.

ولأبي مدين رحمه الله:

عيدوا إليّ الوصل عيدوا إن وصلي بكم جديد
وقربوا الوصل والتداني فالقرب للعاشقين عيد
خذوا فؤادي وفتشوه وقلبوه كما تريدوا
فإن وجدتم فيه سواكم عليَّ زيدوا البعاد زيدوا
وكل يوم أراكم فيه فذاك عندي يوم سعيد

وفي قول الناظم عبيدكم تصغير للعبد حتى لا يظن بنفسه أنه يصلح لخدمتهم فضلاً عن مزايا صحبتهم وأضاف نفسه إليهم لأنه لا يقوى على بعادهم فهو يعتذر لا كأي اعتذار فهناك اعتذار المفارقة وهناك اعتذار المواصلة، والمريد الصادق يريد الثاني لا الأول لذلك قال عبيدكم جعل نفسه كالعبد عند سيده فهو

Scanned by CamScanner

مملوك لهم لا اختيار له إلا فيما يختارونه فهذا اعتذار العبد عن عدم توفية حق صاحب نعمته لذا نشاهده لا يرقب فيهم غير رضاهم عنه يتملق لهم بأسباب الرضا يمرغ وجهه في تراب نعالهم **ينشد بلسان حاله:**

لقد أتيت الحمى بذل ضيفاً نزيلاً فأكرموني
وجئت عبداً لكم محبا فهل عساكم أن تقبلوني
أيا كرام الحي جودوا ذنوب قلبي قد أثقلوني

والقوم كرام والصفح الجميل شيمتهم كيف وقد قال الله عز وجل لسيد الأولين والآخرين ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ (الحجر) ودية الذنب الاعتذار والعفو عن المذنب من مواجب الكرام **وقد قال كعب في حضرة قدوة الأولين والآخرين:**

فقد أتيت رسول الله معتذراً والعذر عند رسول الله مقبول

فاقبل يا رسول الله عذري فإني محب والمرء يحشر مع من أحب

أتيت كرام الحي معتذراً فقالوا يهناك مِنّا قبول

وفي هذا المعنى أقول:

يا رسول الله جئت ساحتكم قلبي محب والكل مبذول
كعب أتاكم وقد عظمت جنايته فذنبه شرك والكفر تهويل
فاستشفع بالنور يستضاء به وأنشد مدحاً فالعذر مقبول
وإني مذنب والذنب جرم وبابكم كرم فالعفو مأمول
إن كان متبول القلب أنشدكم بانت سعاد فكلي اليوم متبول

Scanned by CamScanner

فائدة:

خمس سيدي محي الدين هذا البيت بقوله:

لهم تملّق وقل داووا بصلحكمو بمرهم العفو منكم داء جرحكمو
أنا المسيء هبوا لي محض نصحكمو وقل عبيدكم أولى بصفحكمو
فسامحوا وخذوا بالرفق يا فقرا

واتفق لي في هذا المعنى:

يا سادتي صفحاً فالعبد عبدكم هيا امنحوا فأنا المحتاج منحكم
حاشا أرد وأنتم الجود والكرم وقل عبيدكم أولى بصفحكمو
فسامحوا وخذوا بالرفق يا فقرا

Scanned by CamScanner

٩- هم بالتفضل أولى وهو شيمتهم فلا تخف دركاً منهم ولا ضررا

شرح البيت رقم (٩)

هم أي الكرام أحباب قلبي السلاطين والسادات والأمراء هم أي الوارثون الكاملون لسيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم هم أي أهل الله وخاصته من بين العباد هؤلاء الكرام هؤلاء الكبار هم بالتفضل أولى وهو شيمتهم لأنهم أولى الناس بالعفو والمسامحة والكرم وكيف لا يكون هذا حالهم والله يأمرهم بذلك في كتابه قال عز وجل ﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾(البقرة:١٠٩) وقال عز وجل مخاطباً نبيه و حبيبه صلى الله عليه وسلم ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾(آل عمران:١٥٩) وقال أيضاً ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾(المائدة) وقال عز وجل ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾(النور) وقال عز وجل ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾(التغابن) وقال عز وجل ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (آل عمران) وقال عز وجل ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾(الشورى)وقال عز وجل ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾(الشورى)وقال عز وجل ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾(الجاثية) **وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن الزبير** في قوله تعالى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ قال ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس.

وفي البخاري أيضاً عن عبد الله بن الزبير قال: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس أو كما قال **وفي البخاري أيضاً:** عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون

Scanned by CamScanner

عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى قال الله تعالى ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (آل عمران) وقال تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (البقرة) فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول في العفو عنهم ما أمر الله به .... الحديث.

وهل يخفى على أحد ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة حيث قال لأهل مكة ما تظنون أني فاعل بكم قالوا أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وفي وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله عليهم بالأنصار (اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم) رواه مسلم وقال صلى الله عليه وسلم(تعافوا فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب) رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص وإسناده صحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه) رواه مسلم.

وعند أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو على المنبر (ارحموا ترحموا واغفِروا يغفر الله لكم)

وروى أبو داود بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله(كم نعفو عن الخادم؟ فصمت ثم أعاد عليه الكلام فصمت فلما كان في الثالثة قال اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة) **وقال الحسن البصري** (أفضل أخلاق المؤمن العفو) ومعلوم أن العفو يثمر محبة الله عز وجل فالله عفو يحب العفو.

Scanned by CamScanner

روى الترمذي وقال حسن صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله (أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها قال قولي (اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني) وأخرجه كذلك الحاكم وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

وفي الموطأ بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيب رحمه الله قال: ما من شيء إلا والله يحب أن يُعفى عنه ما لم يكن حداً عن عباده فالقوم كرام وهم بالعفو أولى وهو شيمتهم وأولى الناس بعفوهم خادمهم فحاشاهم أن يحرموه أولا يرضوه فيمنعوه فهم ما أوصدوا لأحد بابا ولا جعلوا بينهم وبين أصحابهم وأتباعهم وخدمهم حجاباً، فإن من حسن سمتهم ما يجتذب القلوب وفي بهائهم وحسنهم ما ينسي المريد جميع العيوب والكروب لأنهم الرحمات المهداة ربوعهم عامرة بكريم الصفات ومن استسمح كريماً لم يرجع خائباً **كيف وقد قالوا:**

نحن قوم إذا أتانا محب عاد من سكره بنا نشوانا
وإذا جاء فارغاً من سوانا عاد من فيض سرنا ملآنا

لذا قال الناظم: فلا تخف دركاً منهم ولا ضررا فهم أهل أمان وأهل حماية فلذ بهم وأدم صحبتهم وأحسن خدمتهم تفز في رحابهم.

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

لا تخش منهم إذا أذنبت هِمتهم أسنى وأعظم أن ترديك عشرتهم
ليسوا جبابرة تؤذيك سطوتهم هم بالتفضل أولى وهو شيمتهم
فلا تخف دركاً منهم ولا ضررا

واتفق لي في هذا المعنى:

قوم كرام ترى الصفح ديدنهم لا تخف منهم إذا أخطأت سطوتهم
فالعذر مقبول والعفو منحتهم هم بالتفضل أولى وهو شيمتهم
فلا تخف دركاً منهم ولا ضررا

Scanned by CamScanner

١٠- وبالتفتي على الإخوان جد أبدا حساً ومعنى وغض الطرف إن عثرا

شرح البيت رقم (١٠)

أشار الناظم في هذا البيت إلى الفتوة التي ينبغي أن يتحلى بها المريد وأن يجود بها على إخوانه حساً ومعنىً **وأصل الفتوة كما يقول الإمام القشيري رحمه الله:** أن يكون العبد ساعياً أبداً في أمر غيره.

وقال العروسي رحمه الله في حاشيته على شرح شيخ الإسلام زكريا رحمه الله على الرسالة القشيرية: والأولى أن يقال في معناها أي الفتوة هي ملكة في الشخص تحمل على البذل والجود بل تقتضي قوة الإيثار ا.هـ.

فتكرم أيها السالك الصادق على إخوانك وجد عليهم دائماً في الحس ببذل المال وفي المعنى بموهبة الأحوال ولا تبخل عليهم بشيء مما يمكنك إيصاله إليهم فإن السماحة لب الطريق ومن تخلق بها فقد أزال عن قلبه كل تعويق **قال سيدي عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه:** ما وصلت إلى الله تعالى بقيام ليل ولا بصيام نهار ولا دراسة علم ولكن وصلت إلى الله تعالى بالكرم والتواضع وسلامة الصدر.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إنَّ في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها فقال أبو مالك الأشعري لمن هي يا رسول الله قال هي لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وبات قائماً والناس نيام) رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن والحاكم وقال صحيح على شرطهما **وقيل الفتوة** أن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك.

وقال الإمام الجنيد رحمه الله: الفتوة كف الأذى وبذل الندى وألا تنافر فقيراً ولا تعارض غنياً فالفتوة عند سيد الطائفة الجنيد رحمه الله جمعت مكارم الأخلاق من عفو وإيثار وحماية للضعيف ونكران للذات وكرم وسخاء وعطاء عن طيب نفس وبشاشة وجه بل تجاوزت هذه المعاني النبيلة إلى عدم النظر إلى الأعمال نظرة اعتبار وتقدير مع إسقاط الروابط التي تربط الإنسان بأي شيء غير الله وذلك

Scanned by CamScanner

من خلال قوله الفتوة عندي ترك الرؤية وإسقاط النسبة وفي الرسالة القشيرية قيل لبعضهم ما الفتوة؟ فقال أن لا يميز بين أن يأكل عنده ولي أو كافر سمعت.

بعض العلماء يقول استضاف مجوسيٌّ إبراهيم الخليل عليه السلام فقال بشرط أن تسلم فمرّ المجوسي فأوحى الله تعالى إليه منذ خمسين سنة نطعمه على كفره فلو ناولته لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه فمضى إبراهيم عليه السلام على أثره حتى أدركه واعتذر إليه فسأله عن السبب فذكر له ذلك فأسلم المجوسي.

وقيل الفتوة فضيلة تأتيها ولا ترى نفسك فيها **وقال عمرو بن عثمان المكي:** الفتوة حسن الخلق وقال ابن عجيبة فتوة العامة بالأموال وفتوة الخاصة بالنفوس وفتوة خاصة الخاصة بالأرواح وبذل المهج في جانب المحبوب.

فائدة:

فرق ابن القيم رحمه الله بين الفتوة والمروة فجعل المروة أعم من الفتوة لأنها استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد أو متعدٍ إلى غيره وترك ما يُدَنِّس ويشين مما هو مختص به أو متعلق بغيره والفتوة إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة من الخلق ا.هـ مدارج السالكين.

فائدة مهمة:

قال أبو علي الدقاق رحمه الله: هذا الخُلُق (أي الفتوة) لا يكون كماله إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كل أحد في القيامة يقول نفسي نفسي وهو صلى الله عليه وسلم يقول أمتي أمتي ا.هـ ذكره القشيري رحمه الله في رسالته.

وقصص الفتوة كثيرة في حياة الصحابة والتابعين والأولياء و الصالحين وكلها شاهدة بطيب نفوسهم وعظيم أخلاقهم فتلك نسماتهم لا تخفى على السالكين وتلك منارات طريقهم ظاهرة للمنصفين فليس في الطريق إلا خدمة بحب وإنفاق بصدق قلب فإن من أخلاقهم الإيثار فقدموك ومن غريب أحوالهم الاستتار فما أحوجوك فالناظم من فرط محبتهم أوصى بخدمتهم ودوام الإنفاق

Scanned by CamScanner

عليهم من غير حساب أو طلب عوض ثواب بل ترىٰ لهم الفضل عليك فقد نلت منهم قبولاً وعفواً واستفدت من صحبتهم عزاً ومجداً أكرموك بالانتساب إليهم وياٰلها من كرامة ازددت بها شرفاً فجد عليهم بالتفتي حساً ومعنىٰ وغض الطرف عن مساوي الإخوان إن وقعت منهم عثرة فالبشر لا تسلم من العثرات فالمحب لا يشهد إلا محاسنهم وهذا من الفتوة **قال بعضهم** الفتوة رؤية محاسن العبيد والغيبة عن مساويهم.

قال الفضيل الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان ا.هـ ذكره القشيري في رسالته.

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

إذا أردت بهم تسلك طريق هدىٰ كن في الذي يطلبوه منك مجتهدا
في نور يومك واحذر أن تقول غدا وبالتفتي علىٰ الإخوان جد أبدا
حساً ومعنىٰ وغض الطرف إن عثرا

واتفق لي في هذا المعنى:

وكن في التواضع كالنجم حين بدا وابسط يديك بالإنفاق مجتهدا
وأبشر فأهل الله بحر ندىٰ وبالتفتي علىٰ الإخوان جد أبدا
حساً ومعنىٰ وغض الطرف إن عثرا

Scanned by CamScanner

١١- وراقب الشيخ في أحواله فعسى يسري عليك من استحسانه أثرا

شرح البيت رقم (١١)

يقول سيدي حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه في الإحياء: يحتاج المريد إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة ، فمن سلك سبيل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به ا.هـ.

ويقول ابن عطاء الله رحمه الله في مفتاح الفلاح: وينبغي لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق سالك للطريق تارك لهواه راسخ القدم في خدمة مولاه فإذا وجده فليمتثل ما أمر ولينته عما نهى وزجر ا.هـ.

وفي الرسالة القشيرية قال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله: الشجر إذا نبت بنفسه ولم يستنبته أحد يورق و لكنه لا يثمر كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتخرج به لا يجيء منه شيء، وكان الأستاذ أبو علي يقول أخذت هذا الطريق عن النصر أبادي والنصر أبادي عن الشبلي والشبلي عن الجنيد والجنيد عن السري والسري عن معروف الكرخي ومعروف الكرخي عن داود الطائي وداود الطائي لقي التابعين ا.هـ.

وقد عدد ابن عطاء الله رحمه الله صفات الشيخ بقوله: لا بد في الشيخ أن يكون زاهداً وأن يدلك على الله مقاله وأن ينهض بك حاله وأن يكون حسن الأحوال حسن الأعمال متحققاً بمقامات السير إلى الله عز وجل ا.هـ.

وقد قرر سادتنا الصوفية أن الشيخ المربي لا بد أن يكون على عقيدة صحيحة ولا بد أن يكون على معرفة بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يكون متبحراً في الشريعة ولا بد أن يكون خبيراً بطرائق تزكية

Scanned by CamScanner

النفوس ووسائل تربيتها فلا بد أن يكون الشيخ المربي قد زكىّ نفسه على يد مربٍ ومرشد فخبر مراتب النفس وأمراضها ووساوسها وعرف أساليب الشيطان ومداخلها وآفات كل مرحلة من مراحل السير وطرائق معالجة كل ذلك بما يلائم حالة كل شخص وأوضاعه ، ولا بد أن يكون المرشد المربي قد أجيز من شيخه بهذه التربية وهذا السير.

قال ابن سيرين رحمه الله: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم رواه مسلم في مقدمة صحيحه عن محمد بن سيرين رحمه الله وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عمر بذلك فقال يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك فانظر عمن تأخذه خذ الدين عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا أخرجه الحافظ ابن عدي عن ابن عمر كما في كنز العمال للمتقي الهندي رحمه الله.

واعلم أن بين الشيخ ومريده تجاوب روحي منشؤه تجانس الروحين فالشيخ يربيّ في طريق الله والمريد يتربىّ على يديه في جنب الله ولما كانت روح الشيخ أقوى في اليقين بالله فإن روح التلميذ تنجذب إليها بدافع رغبتها في طلب الله وذلك أشبه بانجذاب الظمآن إلى مورد الماء الفرات ليروي ظمأه بتوفيق الله.

وإذا سخر الإله أناساً لسعيد فإنهم سعداء

ولهذا المعنى طالبك الناظم أن تراقب الشيخ في أحواله فهي كتاب تربيته إليك وقوله الصادق بين يديك إذ أن الحال أبلغ في التربية من المقال وفي الحديث الصحيح صلوا كما رأيتموني أصلي وفي الحديث الصحيح خذوا عني مناسككم وقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يراقبون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع أحواله في نومه وفي قعوده وفي خروجه وفي أكله وشربه وفي ضحكه وفي مزاحه في لباسه في زينته في مشيه في جهاده في قضائه في كل شيء في حياته ليقتدوا به ففي الصحبة مشاهدة الحال والثبات على كمال الإيمان.

لذلك قال بعض الصحابة بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى ما نفضنا التراب من أيدينا حتى أنكرنا قلوبنا فوجدوا الحال غير الحال والأرض غير

Scanned by CamScanner

الأرض والسماء غير السماء لما في الصحبة من اكتساب أخلاق ولما في المشاهدة من آثار إيمان وأنوار إحسان ولما في المشافهة من تحقيق وبرهان وقد اتفق علماء التربية على أن النظر إلى الذات القدوة أفضل في النفس من السماع عنها وأبقى لآثار الخير في ناظرها.

وقد كان لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك الحظ الوافر والنصيب الأعظم لمجالستهم له صلى الله عليه وآله وسلم ومشاهدتهم إياه وقربهم منه فكانوا خير أمة أخرجت للناس بعد سيد الناس صلى الله عليه وسلم وما زال الإسناد يتسلسل كابراً عن كابر فشيخك في الطريق أثر يدل على شيخه وهكذا إلى الصحب الكرام وهم إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لذلك أمرنا النبي بمجالسة هؤلاء الوارثين والاستفادة من أحوالهم وأقوالهم.

قال المحاسبي في رسالة المسترشدين وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي جلسائنا خير؟ فقال من ذكركم بالله رؤيته وزاد في علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله، قال المحقق عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله رواه عبد بن حميد وأبو يعلى في مسنديهما من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما في مجمع الزوائد للحافظ الهيتمي رحمه الله والمطالب العالية للحافظ ابن حجر رحمه الله وجاء في المطالب بلفظ وزاد في علمكم منطقه كما هنا وجاء في المجمع بلفظ وزاد في عملكم منطقه ولعله الصواب وأول الحديث قال قيل يا رسول الله أي جلسائنا خير؟ قال.....)) وهو حديث حسن قال الحافظ الهيتمي رحمه الله رواه أبو يعلى وفيه مبارك بن حسان وقد وثقوا بقية رجاله رجال الصحيح ونحو هذا قال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب **وقال شيخنا حبيب الرحمن الأعظمي فيما كتبه على المطالب العالية تعليقاً على حديث عبد بن حميد** قال البوصيري رواته ثقات ورواه أبو يعلى الموصلي أيضاً وله شاهد من حديث أسماء بنت يزيد انتهى قلت وله شاهد آخر من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما بنحو اللفظ المذكور أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ونقله عنه الحافظ السيوطي في الجامع

Scanned by CamScanner

الصغير٣: ٤٦٨ بشرح فيض القدير للمناوي وأوله خياركم من ذكركم بالله رؤيته.....))

وروى ابن حبان وصححه من حديث أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنَّ من الناس مفاتيح لذكر الله إذا رؤوا ذكر الله) ا.هـ من فيض القدير للمناوي وله شواهد من حديث ابن عباس وابن مسعود ذكرها الهيتمي في مجمع الزوائد ا.هـ كلام المحقق عبدالفتاح رحمه الله.

وقال الشيخ عبد الفتاح شارحاً لمعنى ذكركم بالله رؤيته ما نصه: ورؤية الرجل الصالح القدوة إنما تُذكرُ بالله لما يُرى عليه من النور والإشراق والأنس والطمأنينة والمحبة والسكينة في سمته وهيئته وخشعته في نطقه وصمته وإطراقه وحركته وسكونه وكل شؤونه فلا ينظره ناظر إلا كان نظره إليه مذكراً له بالله وكانت صورته موجهة له للإقبال على الله أولئك الذين إذا رؤوا ذُكِر الله.

قال الحكيم الترمذي رحمه الله تعالى في((نوادر الأصول)) ص١٤٠عند شرح قوله صلى الله عليه وسلم (من ذكركم بالله رؤيته) (هم الذين عليهم من الله سمات ظاهرة قد علاهم بها القربة ونور الجلال وهيبة الكبرياء وأنس الوقار فإذا نظر الناظر إليه أي إلى الواحد منهم ذكر الله تعالى لما يرى عليه من آثار الملكوت والقلب معدن هذه الأشياء ومستقر النور ويشرب الوجه من ماء القلب فإذا كان على القلب نور سلطان الوعد والوعيد أدَّى إلى الوجه ذلك النور فإذا وقع بصرك عليه ذكَّرك البر والتقوى ووقع عليك منه مَهَابَةُ الصلاح والعلم بأوامر الله تعالى وإذا كان على القلب نور سلطان الحق أدى ذاك إلى الوجه فإذا وقع بصرك عليه ذكَّرك الصدق والحق ووقع عليك منه مهابة الحق والاستقامة وإذا كان على القلب نور سلطان الله تعالى وعظمته وجلاله أدى ذاك إلى الوجه فإذا وقع بصرك عليه ذكرك عظمة الله وجلاله وسلطانه وإذا كان على القلب نور الله تعالى وهو نور الأنوار نهتك رؤيته عن النقائص والمخالفات، فشأن القلب أنه يسقي عروق الوجه ويشربه من ماء الحياة الذي يرطب به ويتأدَّى إلى الوجه من القلب ما فيه لا غير ذلك فكل نور من هذه الأنوار كان في قلب شرب وجهه منه قال الله تعالى ﴿وَلَقَّىٰهُمْ

Scanned by CamScanner

نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ (الإنسان) أي سروراً في القلب ونضرة في الوجه ، فإذا سر القلب برضا الله تعالى عن العبد وبما يشرق فيه من نور نضرت الوجوه بما وَلَجَ القلوب وهو الذي دلَّ النبي صلى الله عليه وسلم على الذكرِ لله عند رؤيته وصيره علامة لأهل ولايته، انتهى كلام الحكيم الترمذي مصححاً متمماً من (فيض القدير) للمناوي٣:٤٦٧.

قال عبد الفتاح: وقد كان هذا النوع الكريم في السلف منتشراً وكثيراً وكان الناس يقصدون لقاءه للانتفاع بالنظر إليه إذ كانت رؤيته وحدها تنير القلب وتحرك الصلاح في النفس وتحبب بالدين وتذكر بالله تعالى.

قال الإمام ابن الجوزي في كتابه (صيد الخاطر) ٢:٣٠٣ وقد كانت جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه لا لاقتباس علمه وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته) انتهى.

وقال أبو طالب المكي في قوت القلوب (وقد كانوا يقصدون الأمصار للقاء العلماء والصالحين للنظر إليهم وللتبرك والتأدب بهم) انتهى.

وجاء في كتاب (مناقب الإمام أحمد بن حنبل) لابن الجوزي ص٢١٠ في (الباب ٣٥) (قال أبو العباس البردعي سمعت الحسن بن إسماعيل يقول سمعت أبي يقول كان يجتمع في مجلس أحمد بن حنبل زُهاء على خمسة آلالف أو يزيدون أقل من خمس مئة يكتبون والباقون يتعلمون منه حسن الأدب وحسن السمت)

وقال أحمد بن سلمان النجاد: سمعت أبا بكر بن المطوعي يقول اختلفت إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل ثِنْتَيْ عشرة سنة وهو يقرأ المسند على أولاده فما كتبت منه حديثاً واحداً إنما كنت انظر إلى هديه وأخلاقه وآدابه) انتهى.

Scanned by CamScanner

وإليك أحد عشر نموذجاً من أولئك الذين كانت رؤيتهم تذكر بالله تعالى وينتفع الناس بهديهم وسمتهم ومشاهدتهم وها نحن الآن بعد أكثر من ألف عام نسمع أخبارهم سماعاً فننتفع بهم فكيف بمن شاهدهم وجالسهم نفعنا الله بعباده الصالحين:

١- كان التابعي الجليل عمرو بن ميمون الأودي الكوفي أدرك الجاهلية ولم يلق النبي صلى الله عليه وسلم وقدم مع معاذ بن جبل من اليمن فنزل الكوفة وكان صالحاً قانتاً لله تعالى حج واعتمر مائة مرة **قال تلميذه أبو إسحاق السبيعي** كان إذا رؤي ذُكِرَ الله تعالى توفي سنة ٧٥ رحمه الله تعالى من ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر ١٠٩:٨ والعبر للذهبي ٨٥:١ وتذكرة الحفاظ له أيضاً ٦٥:١.

٢- وكان التابعي الجليل والإمام الفقيه محمد بن سيرين البصري المتوفى سنة ١١٠هـ رحمه الله تعالى إذا جلس إليه الناس حدثهم وتحدثوا عنده وضحك وسأل عن الأخبار فإذا سُئل عن شيء من الفقه والحلال والحرام تغير لونه وتبدل حتى كأنه ليس بالذي كان وكانوا إذا ذكروا عنده رجلاً بسيئة ذكره بأحسن ما يعلم **قال تلميذاه هشام بن حسان الأزدي وأيوب بن كيسان السختياني البصريان** : ما رأينا أحداً أعظم رجاءً لأهل القبلة من ابن سيرين من الطبقات الكبرى لابن سعد ١٩٥:٧ و١٩٧ و٢٠٠ وكان إذا ذكر الموت مات كل عضو منه وكان إذا مر في السوق فما يراه أحد إلا ذكر الله تعالى ، من كتاب العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد بن حنبل ٢٠:١ وتاريخ الإسلام للذهبي ١٩٤:٤ وتذكرة الحافظ له أيضاً.

٣- وكان الإمام الحسن البصري التابعي الجليل المتوفى سنة ١١٠ رحمه الله تعالى على شاكلة صاحبه وبلديه وعصريِّه الإمام ابن سيرين: إذا رؤي ذُكِرَ الله تعالى قيل ليونس بن عبيد: أتعرف أحداً يعمل بعمل حسن البصري؟ فقال: والله لا أعرف أحداً يقول بقوله فكيف يعمل بعمله؟! ثم وصفه فقال كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه وإذا جلس فكأنه أمر بضرب عنقه وإذا ذُكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له قال أشعث بن عبد الله أحد أصحابه: كنا إذا دخلنا على الحسن خرجنا ولا نعد الدنيا شيئاً **وقال يونس بن عبيد** كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير

Scanned by CamScanner

عمله ولم يسمع كلامه من الحلية لأبي نعيم ١٥٨:٢ والبداية والنهاية لابن كثير ٢٦٧:٩ **وقال مطر الوراق:** كان جابر بن زيد البصري الفقيه العالم بكتاب الله رجل أهل البصرة فلما ظهر الحسن جاء رجل كأنما كان في الآخرة فهو يخبر عما رأى وعاين من تهذيب التهذيب٢:٢٦٤.

٤- **وقال جعفر بن سليمان:** كنتُ إذا وجدتُ في قلبي قسوة غدوتُ فنظرت إلى وجه محمد بن واسع البصري كأنه ثَكْلَى من تاريخ الإسلام للذهبي ١٥٩:٥ وهو تلميذ الإمام الحسن البصري وأحد العلماء العباد والصلحاء الزهاد المجاهدين في سبيل الله توفي سنة ١٣٢ رحمه الله تعالى.

٥- وكان الإمام الحافظ هشام بن حسان القردوسي البصري المتوفى سنة ١٤٨هـ رحمه الله تعالى من البكَّائين العابدين أُحضر إلى بابه الجمل والزاد والسفرة ليحج فشق ذلك على أمه وأخذها مثل الرعدة فبطل سفره للحج من أجلها فلما توفيت كان لا يدع الحج وكان يديم الصوم سوى يوم الجمعة من أجل أمه فلما ماتت سرد الصوم **قال حماد بن سلمة:** كانت رؤية هشام بن حسان تُبكي انتهى من تذكرة الحافظ ١٦٣:١.

٦- وجاء في ترجمة المحدث الثقة عبد الله بن شوذب الخرساني البلخي المتوفى سنة ١٥٦هـ رحمه الله تعالى سكن البصرة ثم بيت المقدس **قال تلميذه كثير بن الوليد:** كنت إذا نظرت إلى عبد الله بن شوذب ذكرت الملائكة من تهذيب التهذيب ٢٥٥:٥.

٧- وجاء في ترجمة عبد العزيز بن أبي رواد المكي المتوفى سنة ١٥٩هـ رحمه الله تعالى **قال عبد الله بن المبارك فيه** كان يتكلم ودموعه تسيل على خده **وقال تلميذه شعيب بن حرب** كنت إذا نظرت إلى عبد العزيز بن أبي رواد رأيت كأنه يطلع إلى القيامة أي ينظر إلى أهل القيامة وهم فيها، من تهذيب التهذيب ٣٣٨:٦ و٣٣٩.

٨- وجاء في ترجمة الإمام مالك بن أنس عالم المدينة وإمام المذهب المالكي المتوفى سنة ١٧٦هـ رحمه الله تعالى **قال مصعب بن عبد الله** كان مالك إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عنده تغير لونه وانحنى حتى يصعب ذلك على جلسائه فقيل له يوماً

Scanned by CamScanner

في ذلك فقال: لو رأيتم لما أنكرتم عليَّ ما ترون كنت آتي محمد بن المنكدر وكان سيد القراء أي سيد العلماء لا نكاد نسأله عن حديث إلا بكى حتى نرحمه، ولقد كنت آتي جعفر بن محمد هو الإمام جعفر الصادق وكان كثير المزاح والتبسم فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اخضرَّ واصفرَّ وكنت كلما أجد في قلبي قسوةً آتي محمد بن المنكدر وكان يجتمع عنده الصالحون ليقتبسوا من هديه وصلاحه فأنظر إليه نظرة فأتعظ بنفسي أياماً، من ترتيب المدارك للقاضي عياض ٢:٥١- ٥٢.

٩- وجاء في ترجمة الإمام العابد الزاهد المحدث الفضيل بن عياض الخرساني ثم المكي المتوفى سنة ١٨٧هـ رحمه الله تعالى **قال إبراهيم بن الأشعث خادم الفضيل**: ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل كان إذا ذكر الله عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف والحزن وفاضت عيناه فبكى حتى يرحمه من بحضرته قال خالد بن رباح قال لي عبد الله بن المبارك إذا نظرت إلى الفضيل جدَّد لي الحزن ومقتُّ نفسي! ثم بكى من تهذيب التهذيب ٨:٢٩٦.

١٠- وجاء في ترجمة الإمام الحافظ القدوة العابد الناسك عبد الله بن داود الخريبي الكوفي المتوفى سنة ٢١٣هـ رحمه الله تعالى قول الإمام العابد محدث العراق وراهب العراق وكيع بن الجراح النظر إلى وجه عبد الله بن داود عبادة من تذكرة الحفاظ ١:٣٣٨.

١١- وجاء في ترجمة العبد الصالح والإمام المحدث الخاشع عبد الله بن مسلمة القعنبي المدني ثم البصري المتوفى سنة ٢٢١هـ رحمه الله تعالى الذي قال فيه الإمام مالك لما قيل له: قدم القعنبي إلى المدينة قوموا بنا إلى خير أهل الأرض جاء في ترجمته أنه كان إذا مر بمجلسٍ يقولون لا إله إلا الله من تذكرة الحفاظ ١:٣٨٣ ومثل هؤلاء السادة في رجال السلف غيرُ قليل **وما أجمل ما قيل فيمن كان من هذا القبيل**:

إذا سكن الغدير على صفاءٍ ... وجنب أن يحركه النسيم
بدت فيه السماء بلا امتراءٍ ... كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك (وُجوهُ) أرباب التجلي ... يرى في صفوها الله العظيم

Scanned by CamScanner

ا.هـ كلام أبو غدة رحمه الله ونقلته بطوله لنفاسته.

وراقب الشيخ في أحواله لأنك بهذه المراقبة تستفيد من حاله وتتخلق بأخلاقه وتتأدب بآدابه فعسىٰ أن يرىٰ عليك أيها الفقير من أثرِ أحواله عليك أثراً صالحاً يدل علىٰ انتفاعك به فيستحسن ذلك ويستبشر باستقامة حالك فإن غاية الشيخ أن تصبح مثله أو أحسن منه وصفاً وروحاً وقلباً وخلقاً وعلماً وعملاً لذا تراه يراك من طرفٍ خفي يربيك فهو لك مراقب ولأحوالك مشاهد عسىٰ يرىٰ عليك من استحسانه أثراً من أحواله التي ورثها عن أشياخه وهم عن أشياخهم إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وإنما يستحسن الشيخ ذلك لأنه يرىٰ ثمرته قد نضجت وتربيته قد نفعت وسره الذي ورثه قد ورثه لغيره فقد وصَّلَ الأمانة إليك وقدمها هدية بين يديك وشيخك لا يفرحه شيء أكثر مما يراه عليك من شمائل محاسنه التي أضحت من محاسنك إذ أن العارفين يتنافسون فيمن يدخل الحضرة أكثر من الآخر ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (المطففين) فإذا بلغت مبلغ الرجال كنت في صحيفة شيخك الأخروية وقد فرح بك الشيخ لأنه استطاع من خلالك أن يكثر سواد الصالحين من الأمة المحمدية لذلك كانت عناية الأشياخ بالتربية عظيمة قالوا لأبي الحسن الشاذلي ألف لنا كتباً ننتفع بها فقال كتبي أصحابي فذكر أن حاله يسري في مريديه قلباً وروحاً وأنهم يحملون عنوانه لا تصحيف ولا تحريف فلله درهم من رجال اللهم انفعنا بهم في الدارين آمين.

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

أصدقهم الحق لا تستعمل الدنسا ... لأنهم أهل صدق سادة رؤسا

واسمح لكل امرئ منهم إليك أسا ... وراقب الشيخ في أحواله فعسىٰ

يرىٰ عليك من استحسانه أثرا

واتفق لي في هذا المعنى:

لا تمنع العلم عمن جاء ملتمسا ... ولازم القوم تجد من هديهم قبسا

وكن أديبا في مجلس السادة الرؤسا ... وراقب الشيخ في أحواله فعسىٰ

يرىٰ عليك من استحسانه أثرا

Scanned by CamScanner

١٢- وقدم الجد وانهض عند خدمتهم عساه يرضى وحاذر أن تكن ضجرا

١٣- ففي رضاه رضى الباري وطاعته يرضى عليك فكن من تركه حذرا

شرح البيتين رقم (١٢-١٣)

خدمة الناس عموماً في الإسلام عبادة وسيد القوم خادمهم **روى البيهقي في شعب الإيمان عن أنس** (سيد القوم خادمهم وساقيهم آخرهم شرباً) ومن سبق في الخدمة لم يسبق بعمل إلا الشهادة في سبيل الله.

روى البيهقي في الشعب عن سهل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (سيد القوم في السفر خادمهم فمن سبقهم في الخدمة لم يسبقوه بعمل إلا الشهادة)

وعند الطبراني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أفضل الغزاة في سبيل الله خادمهم ثم الذي يأتيهم بالأخبار وأخصهم منزلة عند الله الصالح ومن أسقى لأصحابه شربة في سبيل الله سبقهم إلى الجنة سبعين درجة أو سبعين عاماً)

وتأمل في خدمة نبي الله موسى عليه السلام لبنتي شعيب عليه السلام قال تعالى ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (القصص)

وفي صحيح البخاري قول السيدة خديجة رضي الله عنها في وصف النبي صلى الله عليه وسلم (كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق)

وفي البخاري أيضاً وصف ابن الدغنه سيد القارة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه مثلك لا يخرج إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري

Scanned by CamScanner

الضيف وتعين على نوائب الحق فعاد الصديق معه إلى مكة ودخل في جواره وعند النسائي في وصف النبي صلى الله عليه وسلم (ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له حاجته)

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)

قال الإمام النووي رحمه الله: وهو حديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب وفيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو معونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة أو غير ذلك.

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قوله صلى الله عليه وسلم (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وأحسبه قال وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر)

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: لدغت رجلا منا عقرب ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل يا رسول الله أرقيه فقال صلى الله عليه وسلم(من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل)

وفي المتفق عليه قوله صلى الله عليه وسلم (وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة)

وذكر الزمخشري في الفائق والرازي في المختار: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل يعالج طلمة بالضم أي خبزه لأصحابه في سفر وقد عرق وآذاه وهج النار فقال صلى الله عليه وسلم لا يصيبه حر جهنم أبداً.

قال أبو عبيدة: والذي يراد من هذا الحديث أن حمد الرجل أن خدم أصحابه في السفر يعني خبز لهم.

وعن عبد الله بن عمر: أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله (أي الناس أحب إلى الله وأي الأعمال أحب إلى الله فقال رسول الله صلى

Scanned by CamScanner

الله عليه وسلم أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينا أو تطرد عنه جوعاً ولأن أمشي مع أخٍ في حاجةٍ أحب إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد يعني المسجد النبوي شهرا ومن كف غضبه ستر الله عورته ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة ومن مشى مع أخيه في حاجة يثبتها له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام) رواه الطبراني.

وعند البيهقي من حديث أبي هريرة سئل رسول الله أي الأعمال أفضل قال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورا أو تقضي له دينا أو تطعمه خبزاً وفي صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه.

وللخدمة أجر عظيم وثواب كبير تأمل فيما رواه البخاري في باب فضل الخدمة في الغزو من حديث أنس بن مالك قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فمنا الصائم ومنا المفطر قال فنزلنا منزلاً في يوم حار وأكثرنا ظِلاً صاحب الكساء ومنا من يتقي الشمس بيده قال فسقط الصوام وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال رسول الله ذهب المفطرون اليوم بالأجر ولهذا كله كان حرص الصوفية على الخدمة فهذا عامر بن قيس أحد التابعين العباد الزهاد الأصفياء كان يقول لمن يرافقه إني أريد أن أصحبكم على أن تعطوني من أنفسكم ثلاث خلال فيقولون ماهن قال أكون خادماً لكم لا ينازعني أحد منكم الخدمة وأكون مؤذناً لا ينازعني أحد منكم الأذان وأنفق عليكم بقدر استطاعتي فإذا كان هذا في خدمة العامة فكيف بخدمة الخاصة بل خاصة الخاصة بخدمة شيخك ومربيك فخدمة هؤلاء دليل الاصطفاء من الله لك تأمل قول الحق عز وجل ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (آل عمران)

Scanned by CamScanner

تجد أن خدمة الشيوخ لها من الاصطفاء والاجتباء ما لا يناله إلا الأخيار ولو لم يكن لك من خدمة الشيخ إلا دوام مراقبته والتمتع بلذة رؤيته لكفاك فكيف إذا علمت ما في الخدمة من الأجر والثواب.

لذلك حرص الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على خدمة سيد الأولين والآخرين فهذ أنس بن مالك لا يذكر إلا بوصف خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يحب أن يتسمى بذلك ويفتخر به جاءت به أمه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا نبي الله هذا أنس ابني خذه فليخدمك ما شئت فخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين قال أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم فما قال لي أفٍ قط وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت مسكاً قط ولا عِطراً كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه الترمذي وكان النبي يلاطفه أحياناً فيناديه يا أنيس وقد استفاد أنس من هذه الخدمة وظهرت بركتها عليه فكان أنس ممن تربى على يد رسول الله تربية خاصة.

روى البخاري ومسلم عن أم سليم أنها قالت: يا رسول الله خادمك أنس أدع الله له فقال(اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته).

وروى أحمد عن أنس قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن يشفع لي يوم القيامة فقال أنا فاعل ، قلت فأين أطلبك يوم القيامة قال أول ما تطلبني على الصراط قلت فإذا لم ألقك قال فأنا عند الميزان قلت فإذا لم ألقَكَ عند الميزان قال فأنا عند الحوض لا أخطئ هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة.

وروى أبو داود عن أنس قال: إني لأرجو أن ألقى رسول الله فأقول يا رسول الله خويدمك، تأمل جيداً ماذا سيقول لرسول الله غدا سيقول يا رسول الله خويدمك يستعطف قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله يا رسول الله خويدمك فما أشرف الخدمة وما أعظم بركتها في الدنيا والآخرة.

Scanned by CamScanner

وتأمل في بركة الخدمة على سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ففي المتفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل الخلاء فوضعت له وضوءاً فقال من وضع هذا فأخبر فقال اللهم فقهه، وفي لفظ للبخاري اللهم فقهه في الدين وفي لفظ للبخاري قال ابن عباس ضمني النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال اللهم علمه الحكمة وفي رواية اللهم علمه الكتاب.

وعند الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت ميمونة فوضعت له وضوءاً فقالت له ميمونة وضع لك عبد الله بن العباس وضوءاً فقال اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل صححه الحاكم وأقره الذهبي وصححه العراقي والبوصيري رحمهم الله تعالى أجمعين .

وَسَعِدَ ابن مسعود بخدمة نعل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم

روى الإمام الحافظ المحدث أبو يوسف رحمه الله في الآثار عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه قال: بلغني عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان صاحب وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصيره وسواكه ونعليه وعصاه ويستره إذا اغتسل ويمشي معه في الوحشة ويرحل له إذا سافر وكان من أشد الناس به شبهاً إذا دخل وخرج وكان يرسل أم عبدالله فتخبره بذلك وشمائله فَيَشّبه به ا.هـ، وقد وصل هذا البلاغ الحافظ المحدث الحارثي في مسنده حيث أخرجه من طريق الحسن بن زياد عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه عن عون بن عبد الله بن عتبة عن أبيه عن عبد الله رضي الله عنه أنه كان صاحب حصير رسول الله صلى الله عليه وسلم وبهذا السند أنه كان صاحب عصا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه أنه كان صاحب رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه أنه كان صاحب سواك رسول الله وصاحب الميضأة وصاحب النعلين.

وفي صفوة الصفوة قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لقد رأيت النبي وما أرى ابن مسعود إلا من أهله وقال حذيفة ما رأيت أحداً أشبه برسول الله في هديه ودله وسمته من ابن مسعود وقال الصحابة إنه كان ليؤذن له إذا حجبنا ويشهد إذا غبنا **ولله در المناوي حيث يقول:**

Scanned by CamScanner

إني خدمت مثال نعل المصطفى لأعيش في الدارين تحت ظلالها
سَعِدَ ابن مسعود بخدمة نعله وأنا سعيد بخدمتي لمثالها

قال الحافظ الإمام النووي رحمه الله في تهذيب الأسماء واللغات:

فصل في خدمه صلى الله عليه وسلم منهم أنس بن مالك وهند وأسماء أبناء حارثه الأسلميان وربيعة بن كعب الأسلمي وكان عبد الله بن مسعود صاحب نعليه إذا قام ألبسه إياها وإذا جلس حطهما وجعلهما في ذراعيه حتى يقوم وكان عقبة بن عامر صاحب بغلته صلى الله عليه وآله وسلم يقود به في الأسفار وبلال المؤذن وسعد مولى أبي بكر الصديق وذو مخمر ويقال ذو مخبر بالباء الموحدة ابن أخي النجاشي ويقال ابن أخته وبكير بن سراح الليثي ويقال بكر وأبو ذر الغفاري والأسلع بن شريك بن عوف الأعرجي ومهاجر مولى أم سلمة وأبو السجع رضي الله عنهم ا.هـ.

وفي طبقات ابن سعد قال أبو هريرة: ما كنت أظن إلا أن هنداً وأسماء ابني حارثة مملوكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ا.هـ.

أي من شدة خدمتهما للنبي صلى الله عليه وسلم كان يظنهما مملوكان للنبي صلى الله عليه وسلم وممن خدم النبي صلى الله عليه وسلم الأسود بن مالك الأسدي اليماني كان على مطهرة رسول الله وتعاطيه حاجته وثبت معه يوم حنين وعبد الله بن رواحة دخل يوم عمرة القضاء مكة وهو يقود بناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي البخاري من حديث أنس قال: كان قيس بن عبادة من النبي بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير ، وخدمة ابن عباس لزيد بن ثابت رضي الله عنهما مشهورة فقد أخذ ابن عباس بركاب ناقة زيد بن ثابت ينيخ الناقة لزيد حتى يتمكن من ركوبها فلما رأى زيد إسراع ابن عباس لناقته يأخذ بركابها لينيخها قال يا ابن عم رسول الله تنيخ لي الناقة فقال ابن عباس هكذا أمرنا أن نأخذ بركاب علمائنا

Scanned by CamScanner

وكبرائنا فقبل زيد يد ابن عباس وقال هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم.

وقال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية وأن تجلس أمامه ولا تشير عنده بيديك ولا تعمد بعينيك غيره وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته ولا تشبع من طول صحبته.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه في تواضعه للمعلم أهين نفسي لهم فهم يكرمونها.

وكان أبو معاوية الضرير رحمه الله في ضيافة الرشيد فلما فرغ من طعامه قام الضرير ليغسل يده فصب الرشيد الماء على يده والضرير لا يراه فقال الرشيد يا أبا معاوية أتدري من يصب عليك الماء قلت لا قال يصب عليك أمير المؤمنين قال الضرير فدعوت له فقال الرشيد إنما أردت تعظيم العلم وكان الكسائي يعلم ولدي الرشيد الأمين والمأمون وبعد انتهاء الدرس في أحد الأيام قام الإمام الكسائي فقام الأمين والمأمون ليقدما نعلي المعلم فاختلفا فيمن يفعل ذلك ثم اتفقا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة فبلغ الخبر إلى الرشيد فقال للكسائي من أعز الناس قال الكسائي الأمير فقال الرشيد لا، أعز الناس من إذا نهض من مجلسه تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين فظن الكسائي أن ذلك أغضب الرشيد فاعتذر قال الرشيد للكسائي لو منعتهما عن تقديم نعالك لعاتبتك فإن ذلك رفع من قدرهما.

ولهذه المعاني العظيمة أشار الناظم إليك إذا رأيت شيخك الذي دلك على الله ودلك بحاله ومقاله على هدي رسول الله وأنار دربك ووضح لك طريق الجنة ووضع قدمك على الصراط المستقيم إذا رأيته انهض لخدمته بالجد والاجتهاد فعساك تحوز رضاه فتسود مع من ساد فشيخك هو الذي نقلك من نار البعد والانفصال إلى جنة القرب والاتصال وأمات نفسك قبل أن تموت ونقل اسمك ومحا رسمك به وضعت قدمك على الطريق وببركته صرت من أهل التوفيق واحذر أن تضجر ففي الضجر الفساد وخدمة الصالحين تكون بالشوق والحب والفرح

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

والوداد ولازم أعتاب باب شيخك في الصباح والمساء لتفوز برضاه ففي رضا شيخك رضى الباري وفي طاعة شيخك طاعة الله قال صلى الله عليه وآله وسلم رضا الله في رضا الوالد وسخط الله في سخط الوالد رواه ابن حبان عن عبد الله بن عمر وأخرجه الترمذي والحاكم وهو حديث صحيح.

وشيخك والد روحك وفضله أعظم وحقه آكد من أبيك الصلبي.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا نبي الله أي الأعمال أقرب إلى الجنة قال الصلاة على مواقيتها قلت وماذا يا نبي الله قال بر الوالدين قلت وماذا يا نبي الله قال الجهاد في سبيل الله رواه مسلم.

وفي الصحيحين جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذن في الجهاد فقال له النبي أحي والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد وعند مسلم فأحسن صحبتهما وعند النسائي فالزمها فإن الجنة تحت رجليها وعند أحمد عند رجلها وفي المختارة للمقدسي فثم الجنة.

والبر من أسباب المغفرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال إني أذنبت ذنباً عظيماً فهل لي من توبة فقال صلى الله عليه وسلم هل لك من أم قال لا قال فهل لك من خالة قال نعم قال فبرها رواه الترمذي.

فإذا كان بر القريب من أسباب المغفرة فكيف ببر الأصل فاحرص على أن تبر شيخك بحسن خدمته والحرص على رضاه وعلى طاعته وتأمل قول الحق عز وجل ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ (التوبة: ٦٢) وشيخك وارث كامل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقل إن ناداك لبيك وسعديك وإن طلبك للخدمة فقل مرحباً وحيهلاً لعمل يقربني من الجنة وإن رأيت شيخك عنك راضياً فاحمد الله واعلم أن في رضا شيخك رضا الله فكن من تركه أي من ترك رضا الشيخ وترك طاعته حذرا فإنه إن سخط عليك كان سخطه سبباً لسخط الله عليك وهل تقوى على سخط الله وغضبه نعوذ بالله من سخط الله نعوذ بالله من غضب الله، اللهم أدخلنا في دائرة رضوانك الأكبر آمين، اللهم رضِّ عنا مشايخنا في الدنيا والآخرة واجزهم عنا أفضل ما جازيت معلماً عن طالبه آمين.

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذين البيتين فقال:

واسأله دعوىٰ كي تحظىٰ بدعوته تنل بذلك ما ترجو ببركته
وحسّن الظن واعرف حق حرمته وقدم الجد وانهض عند خدمته
عساه يرضى وحاذر أن تكن ضجرا

واحفظ وصيته زد من رعايته ولبّه إن دعا فوراً لساعته
وغض صوتك بالنجوىٰ لطاعته ففي رضاه رضى الباري وطاعته
يرضى عليك فكن من تركها حذِرا

واتفق لي في هذا المعنى:

وكن أديباً والزم باب حضرته والتمس من نظراته طيب نفحته
وكن مسارعاً في حفظ حرمته وقدم الجد وانهض عند خدمته
عساه يرضى وحاذر أن تكن ضجرا

واسمع نصيحته وزد من قداسته وقل كرامة القوم من كرامته
ولبِّ إن ناداك وبادر لطاعته ففي رضاه رضا الباري وطاعته
يرضى عليك فكن من تركها حذِرا

Scanned by CamScanner

١٤ – واعلم بأن طريق القوم دارسة وحال من يدعيها اليوم كيف ترى

شرح البيت رقم (١٤)

واعلم أيها المريد الصادق بأن طريق القوم دراسة الطريق لغة السير إلى الله وطريقة الرجل مذهبه وتأتي الطريقة بمعنى الطريق وبمعنى السيرة وبمعنى المذهب وجمعها طرائق وطرق **وتأتي في اللغة** بمعنى الأسلوب أو المسلك الذي يسلكه الشيخ في التربية مع مريديه.

والطريقة اصطلاحاً: السيرة المختصة بالسالكين إلى الله من قطع المنازل والترقي في المقامات ، والطرق الصوفية هي مدارس في التزكية والتربية والطريقة أيضاً اسم لمنهج أحد العارفين في التزكية والتربية والأذكار والأوراد التي أخذ بها نفسه حتى وصل إلى معرفة الله فينسب هذا المنهج إليه ويعرف باسمه فيقال الطريقة القادرية والطريقة الشاذلية والطريقة الرفاعية والطريقة الميرغنية وهكذا تنسب لرجالاتها والطريقة تعني اتصال المريد بالشيخ.

والطريقة تعني النسبة أو الانتساب إلى الشيخ المرشد المربي الوارث المحمدي ومصطلح الطريقة اقتبسه الصوفية من القرآن الكريم قال تعالى ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ (الجن) هذه الطريقة التي سلكها القوم رضي الله عنهم دارسة أي ذاهبة ممحية قال في اللسان درس الشيء والرسم يدرس دروساً ، عفا ودرسته الريحُ ودرسه القوم عفَّو أثره والدَّرسُ أثر الدِّراس.

وقال أبو الهيثم: درس الأثر يدرس دروساً ودرسته الريح تدْرُسُه دُرساً أي محته فالناظم رحمه الله يشكي حال الطريقة في زمانه فيصفها بالدارسة فمن علامات النجاح في سلوك الطريق الغيرة على تلك الطريقة من أن يدعيها غير أهلها لذلك.

قال الناظم: وحال من يدعيها اليوم كيف ترى تجد الاسم ولا مضمون وقد كان التصوف مضموناً ولا اسم فأصبحنا بحاجة ماسة إلى الفصل بين الصوفية الحقة وبين أدعياء التصوف فقد عانى التصوف على مر الزمان من أدعياء مغرضون تزيوا بزيّه وانتسبوا إليه فأساؤوا بأقوالهم وأفعالهم وسلوكهم والتصوف منهم براء

Scanned by CamScanner

ولذلك كان لا بد من التفريق بين أدعياء التصوف المنحرفين وبين الصوفية الصادقين أصحاب السلوك المستقيم ممن لهم الدرجات العلى.

وقد حذر أئمة التصوف من هؤلاء الأدعياء على مر الزمان من بداية الإمام الجنيد رضي الله عنه إلى الإمام القشيري رحمه الله إلى الناظم رحمه الله حملتهم غيرتهم على إثبات أن طريق القوم دارسة وحال من يدعيها اليوم كيف ترى **ولله در من قال:**

إن تكن ناسكاً فكن كأويس أو تكن فاتكاً فكن كابن هاني
من تحلى بحلية ليست فيه فضحته شواهد الامتحان

وقال الإمام القشيري رحمه الله في مقدمة رسالته المشهورة بالرسالة القشيرية: ثم اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبقَ في زمننا هذا من الطائفة إلا أثرهم كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

حصلت الفترة في هذه الطريقة لا بل اندرست(١) الطريقة بالحقيقة مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء وزال الورع وطوي بساطه واشتد الطمع وقوي رباطه وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا

---

(١) قال الشيخ الأكبر عبد الحليم محمود معلقاً على الرسالة اندرست زالت ومحيت يقصد أن طريقة الصوفية في الحقيقة قد زالت معالمها من نفوس الكثيرين بعد أن غلب عليهم قلة المبالاة ومخالفتهم الشريعة.

Scanned by CamScanner

بالصوم والصلاة وركضوا في ميدان الغفلات وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه وهم محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا، بل صرفوا ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان بما لوحت ببعضه من هذه القصة وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار غيرة على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء أو يجد مخالف لثلبهم مساغاً إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة ولما كنت أؤمل من مادة هذه الفترة أن تنحسم.

ولعل الله سبحانه يجود بلطفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثلى في تضييع آداب هذه الطريقة ولما أبى الوقت إلا استصعاباً وأكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تمادياً فيما اعتادوه واغتراراً بما ارتادوه أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر على هذه الجملة بنى قواعده وعلى هذا النحو سار سلفه فعلقت هذه الرسالة إليكم أكرمكم الله وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم وما أشاروا إليه من مواجيدهم وكيفية ترقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم لتكون لمريدي هذه الطريقة قوة، ومنكم لي بتصحيح شهادة ولي في نشر هذه الشكوى سلوة ومن الله الكريم فضلاً ومثوبة قال القشيري هذا الكلمات قبل ١٠٠٠عام إذ قالها سنة ٤٣٧هـ وها نحن نكررها ونقررها سنة ١٤٣٧هـ.

Scanned by CamScanner

وتكلم الإمام الغزالي عن ذلك في باب الغرور من الإحياء فقال: والصنف الثالث المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم ففرقة منهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزي والهيئة والمنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وكل ذلك من أوائل منازل التصوف ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بضعهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه وهؤلاء غرورهم ظاهر.

ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة فتاقت نفسها إلى أن يقطع لها مملكة فلبست درعا ووضعت على رأسها مغفرا وتعلمت من رجز الأبطال أبياتاً وتعودت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيفية تبخترهم في الميدان وكيف تحريكهم بالأيدي وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها في الشجاعة فلما جردت عن المغفر والدرع فإذا هي عجوز ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر فقيل لها أجئت للاستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم خذوها فألقوها قدام الفيل لسخفها فألقيت إلى الفيل

Scanned by CamScanner

فكهذا يكون حال المدعين للتصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضي الأكبر الذي لا ينظر إلى الزي المرقع بل إلى القلب ا.هـ كلام الغزالي.

قال جلال الدين السيوطي رحمه الله: فالتصوف في نفسه علم شريف رفيع قدره سني أمره لم تزل أئمة الإسلام وهداة الأنام قديماً وحديثاً يرفعون مناره ويجلون مقداره ويعظمون أصحابه ويعتقدون أربابه فإنهم أولياء الله وخاصته من خلقه بعد أنبيائه ورسله غير أنه دخل فيهم قديماً وحديثاً دخلاء تشبهوا بهم وليسوا منهم وتكلموا بغير علم وتحقيق فزلوا وضلوا وأضلوا فمنهم من اقتصر على الاسم وتوسل بذلك إلى حطام الدنيا ومنهم من لم يتحقق فقال بالحلول وما شابهه فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع وقد نبه المعتبرون منهم على هذا الخطب الجليل ونصوا على أن هذه الأمور السيئة من ذلك الدخيل ا.هـ.

أقول ومع هذا كله لا تزال طائفة من أهل الحق على الحق ظاهرين وعلى الطريقة الحقة ثابتين وللمنهج المستقيم سالكين وللتصوف الصحيح ناشرين ووجود الأدعياء لا يصيب التصوف وقد قيل إن الخير والشر في كل طائفة من الناس إلى يوم القيامة فليس كل الصوفية سواء كما أنه ليس كل العلماء والفقهاء والمدرسين والقضاة والتجار والأمراء سواء إذ فيهم الصالح وفيهم الأصلح وفيهم الفاسد وفيهم الأفسد هذا أمر ظاهر لا شبهة فيه عند الجمهور اعرف الحق تعرف أهله ويعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال ولله در المحقق العلامة أحمد رزق رحمه الله حيث قعّد في قواعد التصوف هذه القاعدة العظيمة التي قال فيها فغلاة المتصوفة كأهل الأهواء من الأصوليين وكالمطعون عليهم من المتفقهين يرد قولهم ولا يترك الحق الثابت بنسبتهم إليه وظهورهم فيه ا.هـ ولعمري هذا ميزان الحق الذي يتعين أن نأخذ به ، ونحن ننكر ما أنكره العلماء على هؤلاء الأدعياء من المتصوفة الذين شذوا عن جادة الصواب ونحذر مما حذر منه العلماء الأتقياء الأصفياء من غرائب هؤلاء الأدعياء المتصوفة أما المتمسكون بالكتاب والسنة وهم الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من الصوفية المستقيمون على شرع الله فهم الذين

Scanned by CamScanner

نعنيهم ونقتفي أثرهم ونحب خدمتهم ونحرص على صحبتهم ونحب أن نحشر معهم وأن ندخل في معيتهم وهؤلاء الأتقياء الأصفياء لا يخلو منهم زمان فالأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة حتى يأتي أمر الله فابحث عن الصادقين تجدهم قال ابن عطاء الله في لطائف المنن لا يُعوِزُكَ وجود الدالين وإنما يعوزك وجود الصدق في طلبهم ا.هـ

وقل في ضراعتك إلى ربك اللهم دلني على من يدلني عليك وأوصلني إلى من يوصلني إليك تفز بمطلوبك فالله كريم قريب مجيب سبحانه وتعالى.

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

والزم بمن نفسه نفس مسايسة في ذا الزمان فإن النفس آيسة
منهم وحرفتهم في الناس باخسة واعلم بأن طريق القوم دارسة
وحال من يدعيها اليوم كيف ترى

واتفق لي في هذا المعنى:

تمر الليالي وعيني ساهرة أدعو إلهي ونفسي صادقة
ربطي بقوم أرواحهم طاهرة واعلم بأن طريق القوم دارسة
وحال من يدعيها اليوم كيف ترى

Scanned by CamScanner

١٥ - متى أراهم وأنى لي برؤيتهم أو تسمع الأذن مني عنهمو خبرا

شرح البيت رقم (١٥)

بعد أن شكى الناظم حال الطريقة وكثرة الأدعياء أشار إلى أن من عناوين الطريقة خفاءها وأن الصادق في محبتها سيبذل الغالي والنفيس في سبيل نوالها لذا استبعد الناظم نفسه على سبيل التواضع من أن يمنح منهم وقتاً لرؤيتهم متى أراهم وأنى لي برؤيتهم فأنا لا أصلح لكريم صحبتهم ولا لشريف خدمتهم عز طريقهم وعلا مقامهم ولكن المحب الهائم لا ينقطع رجاؤه لذلك قال الناظم إذا لم أجد حيلة لرؤيتكم فلا تحرموني من طرب همستكم وأنا الفقير لنظراتكم وأنا المغرم المشتاق لسماع أخباركم فأنا لا أنشد من الأنباء غير أخباركم ولا من الأماني غير رفد إحسانكم أبحث عن آثاركم وأتحسس طيب أخباركم وأتمنى تقبيل تراب نعالكم.

أمر على الأبواب من غير حاجة لعلي أراكم أو أرى من يراكم
حلفت يميناً لست أسلو هواكم وقلبي حزين مغرم بهواكم
متى يا كرام الحي عيني تراكم وأسمع من تلك الديار نداكم

قال أبو مدين:

تضيق بنا الدنيا إذا غبتم عنا وتذهب بالأشواق أرواحنا منا
فبعدكم موت وقربكم حيا فإن غبتم عنا ولو نَفَساً مِتنا
نموت ببعدكم ونحيا بقربكم وإن جاءنا عنكم بشير اللقا عشنا
ونحيا بذكركم إذا لم نراكم ألا إن تذكار الأحبة ينعشنا
فلولا معانيكم تراها قلوبنا إذا نحن أيقاظ وفي النوم إن غبنا

Scanned by CamScanner

فما أحسن سمتهم وأجمل حسنهم وما أبهى طلعتهم متى أراهم وأنّى لي برؤيتهم وأنا الضرير وكيف يرى الضرير البصير وما أحلى منطقهم وما أحسن مآثرهم وما أجمل أخبارهم فلا تحرموني طرب همستكم فأنا المشتاق أنتظر أخباركم وأتحسس كل شيء يدلني على وصالكم.

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

يحق لي أن نأوا عني لألفتهم ألازم الحزن مما بي لفرقتهم
على انقطاعي عنهم بعد صحبتهم متى أراهم وأنى لي برؤيتهم
أو تسمع الأذن مني عنهموا خبرا

واتفق لي في هذا المعنى:

التصوف محفوظ بهم لطاعتهم وكل خير بدا فمن فيض بركتهم
فيا ليتني أجثو بمحراب قداستهم متى أراهم وأنّى لي برؤيتهم
أو تسمع الأذن مني عنهموا خبرا

Scanned by CamScanner

١٦- من ليّ وأنى لمثلي أن يزاحمهم على موارد لم أُلفِ بها كدرا

شرح البيت رقم (١٦)

يقول الناظم من لي أي لا حق لي وأنىٰ لمثلي كيف لمثلي أن يزاحمهم هذا حال كل فقير أصيل تجده لنفسه محتقراً ولشأن إخوانه معظما مبجلا أفنىٰ ذاته في خدمتهم وصرف وقته وماله في محبتهم ثم بعد هذا لا يرىٰ من نفسه أهليةً لمجالستهم ولا حقا في مزاحمتهم فيكون دوماً علىٰ أعتابهم منتظرا ولآثارهم ملتمساً وبخدمتهم متبركا ولسان حاله يقول مخاطباً لنفسه أتزاحمهم علىٰ موارد الصفا وهم الذين قربوك أم كيف تُأخرهم وهم الذين قدموك أم كيف تعلمهم وهم الذين فهموك أم كيف تتقدمهم وهم الذين حملوك وأشفقوا عليك وقبلوك اعرف لنفسك حقيقة فقرها فإن من رأىٰ لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب **كما قال الإمام الشبلي رحمه الله ومن كان حاله كما شرحت صرخ قائلاً:**

من لي وأنىّ لمثلي أن يزاحمهم علىٰ موارد لم أُلفِ بها كدرا

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

تخلفي مانعي من أن ألائمهم منهم أتيت فلمني لست لائمهم
يا رب هب لي صلاحا كي أنادمهم من لي وأنىّ لمثلي أن يزاحمهم
علىٰ موارد لم أُلفِ بها كدرا

واتفق لي في هذا المعنى:

بَعدِتُ فكيف لي أصاحبهم قُطعت لا ولست لائمهم
هيهات ما أصلح خادمهم من لي وأنىّ لمثلي أن يزاحمهم
علىٰ موارد لم أُلفِ بها كدرا

Scanned by CamScanner

١٧ - أحبهم وأداريهم و أوثرهم بمهجتي خصوصاً منهموا نفرا

شرح البيت رقم (١٧)

أحبهم والحب في الله من أوثق عرى الإيمان ومن السنة إذا أحب المرء أن يعلن حبه قال صلى الله عليه وسلم (إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن.

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي صلى الله عليه وسلم فمرّ به رجل فقال يا رسول الله (إني لأحب هذا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أأعلمته قال لا قال أعلمه قال فلحقه فقال إني أحبك في الله فقال أحبك الذي أحببتني فيه) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

وها هو سيد الخلق صلى الله عليه وسلم يأخذ بيد معاذ ويقول يا معاذ والله إني لأحبك ثم أوصيك يا معاذ لاتدعنّ في دبر كل صلاة تقول (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي ورويناه مسلسلاً بالمحبة وهذا من فضل الله علينا فله الحمد والمنة أن أكرمنا بالتسلسل في المحبة ، أحبهم وأرجو بركة هذه المحبة

ومن بركاتها ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم يوم لا ظل إلا ظلي) وفي السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه) متفق عليه.

ومن بركاتها حديث معاذ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز وجل المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

ومن بركاتها قوله عز وجل في الحديث القدسي (وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتجالسين فيّ والمتزاورين فيّ والمتباذلين فيّ) حديث صحيح رواه الإمام مالك في الموطأ بإسناد صحيح ومن بركتها حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن

Scanned by CamScanner

النبي صلى الله عليه وسلم قال(المرء مع من أحب) متفق عليه وفي رواية قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم (الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال المرء مع من أحب وعن أنس أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (متى الساعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعددت لها قال حب الله ورسوله قال أنت مع من أحببت) متفق عليه وهذا لفظ مسلم وفي رواية لهما ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة ولكنيّ أحب الله ورسوله.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف تقول في رجل أحبّ قوما ولم يلحق بهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المرء مع من أحب) متفق عليه قال أنس فما فرحنا بشيء بعد الإسلام فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم(إنك مع من أحببت قال فأنا أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأنا أرجو أن أكون معهم لحُبّي إياهم وإن كنت لا أعمل بعملهم رواه أحمد وعبد بن حميد ومسلم.

أقول أنا الفقير إلى رحمة ربه (اللهم إني أشهدك وأُشهد ملائكتك وجميع خلقك أني أحب حبيبك محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وأحب جميع الأنبياء والمرسلين وأحب الصحابة وآل بيت نبينا الطيبين الطاهرين وأزواج نبينا أمهات المؤمنين والأئمة الأربعة المجتهدين والأئمة الستة المحدثين وجميع العلماء الصالحين والأولياء الأكرمين والصوفية الصفوة الصادقين وأرجو بكرمك يا الله أن تحشرني في زمرتهم وأن تدخلني في معيتهم وأن تنفعني بشفاعتهم وأن تعيد عليّ من أنوارهم وأسرارهم وبركتهم ووالدي وأشياخي وزوجي وولِدِي وأحبابي وطلابي ومن إليّ انتمى بمنك وكرمك إله الحق)

(آمين) وأتمثل هنا بقول الإمام الشافعي رضي الله عنه وقد قاله الشافعي تواضعاً وأقوله متحققاً (أحب الصالحين ولست منهم لعلي أن أنال بهم شفاعة) أحبهم وأعتقد أن حبهم إيمان وبغضهم نفاق وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله متفق عليه، ولما أعلن الناظم حبه الذي هو الأصل

Scanned by CamScanner

والأساس أتبعه بذكر ما يقربه من محبوبه فقال وأداريهم وأوثرهم بمهجتي فالمداراة والإيثار من أجل دوام المحبة والمداراة مصدر أداري يقال داريته مداراة لاطفته ولاينته ومداراة الناس تعني ملاينتهم وحسن صحبتهم واحتمالهم لئلا ينفروا عنك

قال ابن بطال رحمه الله: المداراة خفض الجناح للناس ولين الكلام ترك الإغلاظ لهم في القول

قال ابن حجر رحمه الله: المداراة المراد بها الدفع برفق وقال المناوي المداراة الملاينة والملاطفة.

والإيثار: مصدر آثر يؤثر إيثاراً بمعنى التقديم والاختيار والاختصاص فآثره إيثاراً اختاره وفضله.

والإيثار اصطلاحاً: أن يقدم غيره على نفسه في النفع له والدفع عنه وهو النهاية في الأخوة ، وفرق ابن القيم رحمه الله بين الإيثار والسخاء والجود فكل مالا ينقصه البذل ولا يصعب عليه يكون سخاء ، ومن يعطي الأكثر ويبقي له شيئاً أو يبقي مثلما أعطى يكون جواداً أما المؤثر فهو الذي يؤثر غيره مع حاجته إليه وهذا هو الإيثار قال تعالى في صفة الأنصار ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر)

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم).

وقد آثر الناظم أحبابه بأعلى أنواع الإيثار وهو إيثارهم بمهجته بروحه كما فعل أبو الحسين أحمد بن محمد النوري رضي الله عنه عندما حصلت الوشاية بالصوفية إلى الأمير أمر بضرب رقابهم وكان في تلك المجموعة النوري رحمه الله فلما بسط السياف النطع تقدم النوري بسرعة فقال السياف أتدري إلى ماذا تبادر قال نعم قال وما يعجلك قال أوثر أصحابي على نفسي بحياة ساعة فتحير السياف

Scanned by CamScanner

ورفع الأمر إلى الخليفة فأرسلهم الخليفة للقاضي فتقدم القاضي بالأسئلة يلقيها على الفقراء فتقدم النوري يجيب عليها واحداً واحداً فلما فرغ القاضي قال النوري إنَّ لله عباداً إذا قاموا قاموا بالله وإذا نطقوا نطقوا بالله وسرد ألفاظاً أبكى بها القاضي فأرسل القاضي إلى الخليفة إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم والقصة مفصلة في الرسالة القشيرية، ولما كان في القوم من الفقراء الحبيب والأحب والقريب والأقرب اختص الناظم النفر الذين هم أهل الوداد وخواص الخواص فقال خصوصاً منهم نفراً.

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

جلت عن الوصف أن تحصى مآثرهم على البواطن قد دلت ظواهرهم
بطاعة الله في الدنيا مفاخرهم أحبهم وأداريهم وأوثرهم
بمهجتي وخصوصاً منهمو نفرا

واتفق لي في هذا المعنى:

رجال خالص الحب منهجهم صوفية صفاء الود مشربهم
نوروا قلبي والنور شاهدهم أحبهم وأداريهم وأوثرهم
بمهجتي وخصوصاً منهمو نفرا

Scanned by CamScanner

١٨- قوم كرام السجايا حيثما جلسوا يبقى المكان على آثارهم عطرا

شرح البيت رقم (١٨)

أحبابي هم قوم كرام السجايا أي سجاياهم كريمة وهممهم عظيمة ومناقبهم فخيمة حيث ما جلسوا تبقى آثار نفحات عطرهم ظاهرة وأينما توجهوا تسطع شمس معارفهم فتشرق القلوب وتصلح بهم الدنيا والآخرة فهم الوارثون الكاملون لسيد الكاملين صلى الله عليه وآله وسلم والعلماء ورثة الأنبياء فالوارث الكامل من ورث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ظاهره وباطنه أي ما يتعلق بالجوارح الظاهرة وما يتعلق بالأخلاق الباطنة التي ترجع إلى معاملة القلب وما ينكشف للروح من مشاهدها الصادقة.

عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن في السماء ملكين أحدهما يأمر بالشدة والآخر يأمر باللين وكل مصيب جبريل وميكائيل ونبيين أحدهما يأمر بالشدة والآخر يأمر باللين وكل مصيب وذكر إبراهيم ونوحاً عليهما السلام ولي صاحبان أحدهما يأمر بالشدة والآخر يأمر باللين وكل مصيب وذكر أبا بكر وعمر رضي الله عنهما أخرجه الطبراني وقال الهيتمي رجاله ثقات.

هذه هي الوراثة المستمرة التي يقول بها المسلمون ورثوا النبي في التخلق بأخلاقه الحميدة وسيرته العطرة المجيدة وهذا هو معنى الاقتداء.

وتأمل جيداً فيما أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من أحب أن ينظر إلى المسيح عيسى بن مريم إلى بره وصدقه وجده فلينظر إلى أبي ذر) وأخرج الترمذي من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أبي ذر أنه أشبه عيسى عليه السلام في ورعه هذه الوراثة الكاملة فاز بها الأصفياء صفوة القوم أعلام الملة وسادة الأمة وسراجها الوهاج ونورها الوضاح قوم كرام السجايا حيثما حلوا نفعوا أدلاء الطريق من سار على دربهم استنار قلبه وصَلُح ظاهره وباطنه واستقام أمره وفاز فوزاً عظيماً وهذه المعاني لا يدريها إلا من شرب من حياضهم وسقوه من كأس ودادِهم

Scanned by CamScanner

من ذاق طعم شراب القوم يدريه ومن دراه غدا بالروح يشريه

نعم من ذاق طعم شراب القوم وعرف المعنى غدا بالروح يشريه ولله در الإمام محمد بن علي بن محمد السودي التعزي اليمني المتوفى ٩٣٢هـ حيث قال:

لو أن روحي في كفي وجدت بها على البشير بكم يا مرهم العلل
ما إن وفيت ببعض من حقوقكم وصرت في عدم الإنصاف في خجل

اللهم انفعنا بهم في الدنيا والآخرة (آمين)

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

قوم على الخلق بالطاعات قد رؤسوا منهم جليسهم الآداب يقتبس
ومن تخلف عنهم حظه التعسُ قوم كرام السجايا حيثما جلسوا
يبقى المكان على آثارهم عطرا

واتفق لي في هذا المعنى:

البدر من أنوارهم يا صاح يقتبس والعلم من بحرهم للناس يبتدسُ
ولسر الهداية من أنفاسهم نفس قوم كرام السجايا حيثما جلسوا
يبقى المكان على آثارهم عطر

Scanned by CamScanner

١٩- يهدي التصوف من أخلاقهم طرقا حسن التآلف منهم راقني نظرا

شرح البيت رقم (١٩)

يهدي التصوف للسالك المشتاق من أخلاقهم الحميدة طرقاً مجيدة يدلهم على الطريق حسن التألف وبديع التجانس من هؤلاء الأخيار راقني نظراً وراق كل ناظر.

وفي صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح جنود مجنده فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف

لله درهم من رجال أدركوا أن التصوف ذوق وصحبة ، صحبة وألفة تثمر حسن الخلق يهدي التصوف من أخلاقهم العليا التي ورثوها ممن امتدحه الله عز وجل بقول سبحانه وتعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم) ورثوها من صاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم الذي قال في معرض بيان أعظم أهداف رسالته الغراء وشريعته السمحاء إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق أخرجه مالك وأحمد والبيهقي تهدي هذه الأخلاق طرقاً عظيمة تدل على الله تدل على الجنة هذه الطرق على الكتاب والسنة مشيدة رجالها رجال كيف لا وقد تربى هؤلاء الرجال في مدرسة صاحب الخلق العظيم الذي قال لأبي هريرة رضي الله عنه يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق قال أبو هريرة رضي الله عنه وما حُسن الخلق يا رسول الله قال صلى الله عليه وسلم تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك أخرجه البيهقي.

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، أخرجه الترمذي في سننه ويقول النبي صلى الله عليه وسلم إن الرجل ليدرك بحسن خلقه القائم بالليل الظامئ بالهواجر، أخرجه الطبراني في الأوسط هذه الأخلاق التي قوت رباط أخوتهم وحبل مودتهم في الله قال تعالى ممتناً ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ

Scanned by CamScanner

﴿ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأنفال) وقال عز وجل ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ (آل عمران: ١٠٣)

فمن نظر إلى الصوفية رأى تجانسهم لأن قلوبهم اتصلت بالله واجتمعت عليه وفي السبعة الذين يظلهم الله في ظله ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه رواه الشيخان.

قال أبو سعيد الخراز رضي الله عنه: صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بيني وبينهم خلاف فقيل له وكيف ذلك قال لأني كنت معهم على نفسي وقال صلى الله عليه وسلم (المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) أخرجه الحاكم والبيهقي.

وما سمي الصوفية بالصوفية إلا لأنه صافى فصوفي لهذا سميّ بالصوفي.

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

فَهِم بهم لا تفارقهم تزد شغفا ... وإن تخلفت عنهم فانتحب أسفا

عصابة بهم يكسى الفتى شرفا ... يهدي التصوف من أخلاقهم طرقا

حسن التآلف منهم راقني نظرا

واتفق لي في هذا المعنى:

غرامي بهم زادني شغفا ... وشملي بهم أضحى مؤتلفا

وقلبي بهم تجلى ورقا ... يهدي التصوف من أخلاقهم طرقا

حسن التآلف منهم راقني نظرا

Scanned by CamScanner

٢٠- هم أهل ودي وأحبابي الذين هموا ممن يجر ذيول العز مفتخرا

شرح البيت رقم (٢٠)

هم الذين تقدم ذكرهم الفقرا السادة السلاطين الأمراء أحباب الله عز وجل وأحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء الأولياء الأتقياء الأصفياء أهل ودي وأحبابي هذه الحقيقة التي لا أستطيع كتمانها لأن روائح نسيم المحبة تفوح في المحبين وإن كتموها وتظهر عليهم وإن أخفوها وتدل عليهم وإن ستروها **سئل إبراهيم بن داود الرقي المتوفى ٣٢٦هـ وهو من أقران الجنيد رضي الله عنه سئل هل يبدي المحب حبه وهل يطيق كتمانه فأنشد:**

ظفرتم بكتمان اللسان فمن لكم بكتمان عين دمعها الدهر تذرف
حملتم جبال الحب فوقي وأنني لأعجز عن حمل القميص وأضعفُ

وكان يقول رحمه الله حسبك من الدنيا شيئان صحبة فقير وحرمة ولي وعن بعض العابدات أنها قالت:

قد كتمت الهوى فباح بسره عبرات من الجفون تسيل

وقالت أيضاً:

كتب الدمع فوق خدي سطورا كل وجدٍ بمن هويت قليل
أعـذروني إذا بليـت من الوجد فما لي إلى العزاء سبيل
إن دمعي لشاهد على الحب دليل بأن حزني طويل

أحبهم وأرجو بحبي لهم أن أحشر في زمرتهم وأدخل في معيتهم فأحبابي هؤلاء هم أولياء الله وهم ممن يجر ذيول العز مفتخرا ينادي يوم القيامة فرحاً بنعمة الله مستبشرا برضوان الله بعد أخذ كتابه باليمين ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ

Scanned by CamScanner

أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الحاقة) أحبهم وأتذلل لهم وقد قال يوسف بن حسين الرازي توفي سنة٣٠٤هـ ذل الفتىٰ في الحب مكرمة وخضوعه لحبيبه شرف أحبهم وأعظمهم وقد قال أبو الحسين بن بنان ت٣١٦هـ لا يعظم قدر الأولياء إلا من عظيم القدر عند الله.

لي سادة من عزهم أقدامهم فوق الجباه
إن لم أكن منهم فلي في حبهم عز وجاه

ولله در القائل:

كفىٰ شرفاً أني مضاف إليكم وأني إليكم أدعىٰ وأعرف

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

جررت ذيل افتخاري في الهوىٰ بهم لما رضوني عُبيداً في الهوىٰ لهم
وحقهم في هواهم لست أنسهم هم أهل ودي وأحبابي الذين هم
ممن يجر ذيول العز مفتخرا

واتفق لي في هذا المعنى:

إن قيل لي من الرجال قلت هموا صوفية بالله قد اعتصموا
هم الأخلاق هم الآداب والشيمُ هم أهل ودي وأحبابي الذين هموا
ممن يجر ذيول العز مفتخرا

Scanned by CamScanner

٢١- لازال شملي بهم في الله مجتمعا وذنبنا فيه مغفوراً ومغتفرا

شرح البيت رقم (٢١)

وقف الناظم في ختم نظمه في محراب العبودية يتضرع إلى الله عز وجل ويسأل الله من فضله ويدعو لازال شملي بهم بأهل الله أحباب قلبي أهل ودي لا زال شملي بهم في الله عز وجل مجتمعا وذنبي مغفوراً ومغتفرا ونحن نسأل الله عز وجل ذلك ومن أدعية الحبيب صلى الله عليه وسلم اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين رواه الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه.

فائدة:

خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

قطعتُ في النظم قلبي في الهوىٰ قِطعا وقد توسلت للمولىٰ بهم طمعا
أن يغفر الله لي وللمسلمين معا لا زال شملي بهم في الله مجتمعا
وذنبنا فيه مغفوراً ومغتفرا

واتفق لي في هذا المعنى:

يا سادتي قد جئتكم طَمِعا أنتم كرام صلوا ما قُطعا
يا رب لا تجعلني منقطعا لا زال شملي بهم في الله مجتمعا
وذنبنا فيه مغفوراً ومغتفرا

Scanned by CamScanner

٢٢- ثم الصلاة على المختار سيدنا محمد خير من أوفى ومن نذرا

شرح البيت رقم (٢٢)

ختم الناظم منظومته المباركة بالصلاة على المختار سيدنا محمد خير من أوفى وخير من نذرا صلى الله عليه وسلم عدد ورق الأشجار وعدد قطر الأمطار وعدد حب الرمال وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه صلاة وسلاما ننال ببركتها حسن الختام (آمين).

فائدة:

وقد خمس سيدي محي الدين بن عربي هذا البيت بقوله:

يا كل من ضمه النادي بمجلسنا ادع الاله بهم يمحو الذنوب لنا
وادعو لمن خمس الأصل الذي حسنا ثم الصلاة على المختار سيدنا
محمد خير من أوفى ومن نذرا

واتفق لي في هذا المعنى:

بحمد الله قد تم مقصدنا وحسن الختم يا رب مطمعنا
وبالأحباب في الفردوس مجمعنا ثم الصلاة على المختار سيدنا
محمد خير من أوفى ومن نذرا

Scanned by CamScanner